وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة ابن خلدون – تيارت
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر

الموسومة بـ :

فرنسا في القرن 19 في عيون الرحالة المغاربة
"رحلتا الصفار وولد قادي أنموذجا"

إعداد الطلبة:
- نعيمي فاطيمة
- داودي فاطمة

إشراف الأستاذ:
الدكتور كمال بن صحراوي

لجنة المناقشة:

أساتذ(ة)	الرتبة	الصفة
بكاري عبد القادر	أستاذ محاضر	رئيـــــسا
كمال بن صحراوي	أستاذ تعليم عالي	مشرفا ومقررا
خنفار حبيب	أستاذ محاضر	مناقشا

السنة 2023-2024 م/ 1444 – 1445 هـ

شكر وتقدير:

الحمد لله أولاً وآخراً على ما أكرمنا به من نعمة العقل والصحة والقدرة على إتمام هذا العمل الذي نرجوا أن ينال رضاه، ثمّ أما بعد.

نتقدم بجزيل الشكر وخالص التقدير للأستاذ الفاضل بن صحراوي كمال على قبوله الإشراف على هذا العمل، متمنين له كل التوفيق والنجاح في مسيرته العلمية والعملية.

كما نتوجه بالشكر للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذه المذكرة.

كما نتوجه بالشكر أيضا إلى جميع أساتذة كليتنا وإلى من أعاننا ولو بالشيء القليل في إتمام هذا العمل.

إهداء:

الحمد لله حبا وشكراً وامتناناً على البدء والختام.

" وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " [يونس: 10-

لم تكن الرحلة قصيرة ولا ينبغي أن تكون، لم يكن الحلم قريبا ولا الطريق كان محفوفا بالتسهيلات لكنِّي فعلتها ونِلتها بفضل الله سبحانه وتعالى أنا اليوم أنظر إلى حلمٍ طال انتظاره وقد أصبح واقعاً أفتخر به.

بكل حب أهدي ثمرة نجاحي وتخرجي:

إلى الذي زيَّن اسمي بأجمل الألقاب، من دعمني بلا حدود وأعطاني بلا مقابل ومن علمني أنَّ الدنيا كفاح وسلاحها العلم والمعرفة، شيخي قبل كل شيء وداعمي الأول في مسيرتي وسندي وقوتي وملاذي بعد الله فخري واعتزازي: والدي حفظه الله وأطال في عمره.

إلى من جعل الله الجنة تحت أقدامها، واحتضنني قلبها قبل يديها وسهلت لي الطريق بدعائها، إلى القلب الحنون والشمعة التي كانت لي في الليالي المظلمات، سر قوتي ونجاحي: والدتي حفظها الله وأطال في عمرها.

وإلى من سُميت باسمها "أمي فاطمة" رحمها الله وأسكنهم فسيح جناته.

وإلى من قيل فيهم "سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ" من ساعدوني بكل حب، أخواتي وإخوتي أدامهم الله ضلعا ثابتا لي.

وإلى من رزقني الله بهن لأعرف من خلالهن مفهوم الصداقة والحب في حياتي صديقاتي " بسيمة وفاطيمة" وفقهم الله.

فالحمد لله الذي ما تيقنت به خيرا وأملا إلّا وأغرقني سرورا وفرحا ينسيني مشقتي.

داودي فاطمة.

إهداء:

الحمد لله وكفى والصلاة على الحبيب المصطفى وأهله ومن وفى.

الحمد لله الذي وفقني لتثمين هذه الخطوة في مسيرتي الدراسية بمذكرتي هذه ثمرة الجهد المهداة إلى من تعبا في تربيتي في الصغر وكانا لي نبراسا يضيء فكري بالنصح والتوجيه في الكبر أبويّ حفظهما الله. وإلى الوالدين الكريمين رحمهما الله.

إلى من وهبني الله نعمة وجودهم في حياتي إخوتي وأخواتي وجدتي رعاهم الله.

إلى من كاتفني ونحن نشق الطريق معاً نحو النجاح في مسيرتنا العلمية، صديقاتي فاطمة، بسيمة، أم كلثوم وسعاد. وإلى جميع الأصدقاء والأحباب.

ثم إلى كل من ساعدني، وكان له دور من قريب أو بعيد في إتمام هذه الدراسة، سائلة المولى عز وجل أن يجزي الجميع عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

وأخيراً إلى كل طالب علم سعى بعلمه ليفيد الإسلام والمسلمين بما أعطاه الله من علم ومعرفة.

نعيمي فاطيمة

قائمـــة المختصرات

باللغة العربية:

ج :	جزء
ط :	طبعة
د.ت :	دون تاريخ
تر :	ترجمة
ص :	صفحة
ص ص :	من الصفحة .... إلى
مج:	مجلد

باللغة الأجنبية:

p	page
p.p	de page à la page
Op.cit	ouvrage déjà cité
T	Tome

مقدمـــــة

مقدمة:

تعتبر كتب الرحلات مصدرا تاريخيا هاماً لأن الكاتب يستقي فيها المعلومات من الحقائق والمشاهدة الحية والتصوير المباشر مما يجعل قراءتها غنية فهي رصد لمختلف التجارب والعادات والتقاليد والخصوصيات، وقد اشتهر المغاربة عموما بحب التنقل والترحال بحكم الظروف التاريخية التي مرت بها المنطقة من تعاقب للحضارات والقوى الاستعمارية الغازية.

ومع بداية القرن التاسع عشر تغيرت وجهة الرحالة المغاربة صوب أوروبا وبالتحديد إلى فرنسا، فمنذ أن وطأت هذه الأخيرة أقدامها في أرض الجزائر سنة 1830 اعتمدت الغزو الفكري لضرب الهوية الثقافية الجزائرية واستبدالها بالثقافة الفرنسية، ونظرا لإدراكها للدور الكبير الذي تلعبه الرحلات في خدمة مهمتها الاستعمارية عملت على توظيفها من خلال خلق نوع جديد من الرحلة يعكس في طياته الفرق الشاسع بين الدولتين من أجل تعزيز الصورة الإيجابية لفرنسا والتأثير على عقول أصحابها تمهيدا لنشر نفوذها، فبعد أن يطلعوا على الحضارة الفرنسية وقوتها المادية والفكرية يعودون إلى بلدانهم منبهرين بها.

إن التواجد الاستعماري في الجزائر جعل المغرب يشهد جملة من الأحداث التي جعلته ينخرط ضمن الصراع الفرنسي الجزائري، والتي أدت به في النهاية إلى عقد اتفاق مع فرنسا بشروط مذلة وذلك عقب معركة إيسلي الشهيرة، وأمام هذا الانهزام شعر المغرب بالحاجة إلى ضرورة التعرف على هذا العدو القريب فاستخدم الرحلة كوسيلة لتحقيق ذلك، ما جعله يكلف شخصا بمهمة كتابة تقرير سري عن فرنسا بطريقة غير مباشرة ضمن بعثة رسمية بعث بها السلطان إلى ملك فرنسا لتهدئة العلاقات فيما بينهم، وعليه قبلت السلطات الفرنسية بها من أجل تحقيق غرضها المتمثل في غرس فكرة التفوق الذهني للجنس الفرنسي ومن ثمة تسهيل مهمتها الاستعمارية في المغرب مستقبلا، هذه هي الأهداف التي كان ينتظر أن تحققها تلك الرحلات.

ومن هذا المنطلق تمت الرحلتين المعنيتين بالدراسة والتي كانتا بعنوان " **رحلة الصفار إلى فرنسا 1845م** " لمحمد بن عبد الله الصفار التطواني و" **الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية 1878م** "لأحمد ولد قادي، اللتان تعتبران من أهم الرحلات التي عكست واقع الجزائر و المغرب في تلك الفترة. ولمعالجة هذا الموضوع انطلقنا من الإشكالية التالية: ما مدى أثر الرحلتين على المجتمعين الجزائري والمغربي من خلال انبهار صاحبيهما بالتطور الفرنسي؟ وما مدى استفادة فرنسا من ذلك؟

انبثق عن هذا الإشكال الرئيسي جملة من التساؤلات الفرعية التي سنحاول الإجابة عنها وهي على النحو التالي:

من هو مُحَمَّد الصفار؟ ومن هو أحمد ولد قادي؟

ما هي أهم الغايات التي سعت فرنسا إلى تحقيقها من خلال هاتين الرحلتين؟

كيف كانت رؤية الكاتبان لفرنسا؟

هل استطاعت هاتان الرحلتان أن ترصدا لنا أوجه الحياة الفرنسية والاختلافات بينها وبين مثيلتها في الحياة الجزائرية والمغربية؟

هل تضمنت الرحلتان جوانبا إيجابية تجاوزت من خلالهم الإطار الوصفي البحت؟

كان اختيارنا لهذا الموضوع الذي اقترحه علينا الدكتور كمال بن صحراوي كمحاولة منَّا للتّعرُف على صورة فرنسا في أعين الرّحالة المغاربة خلال القرن التاسع عشر وأيضا رغبة منَّا في إضافة علمية لهذا الموضوع.

كان الاعتماد في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي والسردي وذلك لأننا قمنا برصد للأحداث التاريخية وسردها ووصفها حسب كل مرحلة من المراحل، كما ساعدنا أيضا المنهج الاستقرائي من خلال دراستنا للرحلتين وتتبع أجزاءهما بشكل كلي من أجل الوصول إلى نتيجة مفادها التعرف على نظرة الكاتبان لفرنسا، كما تخلل هذه الدراسة أيضا الاعتماد على منهج المقارنة وذلك من خلال الوقوف على أوجه التّشابه والاختلاف بين الرحلتين.

أمَّا الدراسات السابقة التي خصت الموضوع وكانت بمثابة زاد تاريخي نذكر منها:

الباشاغا أحمد ولد قادي آغا فرندة ورحلته إلى فرنسا 1878م لأستاذ مُحَمَّد أوجرتني.

الرحلات الجزائرية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر رحلة ابن صيّام والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية أنموذجا لعبد الحميد عومري.

باريز وباريزيون في رحلة الصفار لمصطفى غطيس.

المماثلة والفتنة والجسد والذات والصورة متخيل الرحلة الصفارية المغربية إلى أوروبا لفريد الزاهي.

كما قد استفدنا في بحثنا هذا بقائمة نظن أنها كانت وافية إلى حد ما في إنجاز موضوعنا تكونت من مصادر ومراجع أساسية كان أهمها: الرحلتين المعنيتين بالدراسة "الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية" لأحمد ولد قادي والتي كانت عبارة عن مخطوط أرّقنا كثيرا في دراسته نظرا للخط المغربي الذي كتب به، وكتاب رحلة الصفار إلى فرنسا "تحقيق سوزان ميلار" والذي احتوى نص الرحلة الذي لم نتمكن من الحصول عليه في نسخته الأصلية فساعدنا كثيرا كونه يضم دراسة شاملة للرحلة.

كتاب طلوع سعد السعود لابن عودة المزاري الذي ساعدنا في معرفة جوانب الحياة الشخصية لأحمد ولد قادي رغم أنّه لم يكن مفصلا وموضحا فيها. وأيضاً كتاب الدوابر والزمالة وحركاتهم للكاتبين كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي والذي كان لبنة أساسية فيما يتعلق بموضوع أحمد ولد قادي.

بالإضافة إلى كتاب ثلاث رحلات جزائرية لخالد زيادة الذي ساعدنا كثيرا في استقراء نص مخطوط الرحلة القادية ومعرفة بعض الشروحات التي أشكل علينا فهمها. وأيضا كتاب تجارب استغرابية لمحمود حيدر الذي ضمّ دراسة لكلا الرحلتين.

ولبلوغ هدفنا تهيأ البحث على خطة قوامها هذه المقدمة التي يتلوها ثلاثة فصول وكل فصل يحوي أربعة مباحث فرعية وخاتمة ملحوقة بمجموعة من الملاحق بالإضافة إلى قائمة البيبليوغرافيا وفهرس الموضوعات.

كانت عتبة الفصل الأول قراءة في مفهوم الرّحلة وأهمية الرّحلة العربية المعاصرة إلى أوروبا، ضمّ هذا الفصل أربعة مباحث: مفهوم الرّحلة لغة واصطلاحا المبحث الأول، ودوافع الرّحلة وأنواعها المبحث الثاني، وأهمية الرّحلة والرّحلة العربية المعاصرة إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر المبحث الثالث، ونماذج عن الرّحالة المغاربة إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر المبحث الرابع.

ثمّ الفصل الثاني الذي كان محوره صورة فرنسا في عيون الفقيه مُحَمَّد الصفار من خلال رحلته 1845-1846م، تضمن أربعة مباحث: ترجمة لشخصية الفقيه مُحَمَّد الصفار المبحث الأول، والسياق التاريخي لرّحلة مُحَمَّد الصفار المبحث الثاني، والتعريف بالرّحلة المبحث الثالث، ودراسة مضمون الرّحلة المبحث الرابع.

ثمّ الفصل الثالث الذي كان محوره صورة فرنسا في عيون أحمد ولد قادي من خلال رحلته سنة 1878م تضمن أيضا أربعة مباحث: ترجمة لشخصية أحمد ولد قادي المبحث الأول، ومظاهر ولاء أحمد ولد قادي لفرنسا المبحث الثاني، والتعريف بالرّحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية المبحث الثالث، ودراسة مضمون

الرّحلة المبحث الرابع. ومسك هذا كلّه خاتمة تضمنت خلاصة البحث في شكل جملة من النتائج محورها المقارنة بين الرحلتين.

واجهنا في هذه الدراسة جملة من الصعوبات أبرزها:

نقص الوثائق المتعلقة بالموضوع التي تعد أهم مصدر لكتابة بحث أكاديمي فمعظم الوثائق المتعلقة بشخص أحمد ولد قادي موجودة بمركز الأرشيف بفرنسا وباللغة الفرنسية، وأيضا نفس الشيء بخصوص مُحَمَّد الصفار فأغلب الدراسات المغربية غير متوفرة في الجزائر. لكن وبفضل الله تمكنّا في الأخير من إتمام هذه الدراسة التي نأمل أن نكون قد وُفقنا فيها في أداء الأمانة العلمية المفروضة.

الفصل الأول

الرّحلة والرّحلة العربية المعاصرة خلال القرن التاسع عشر

المبحث الأول: مفهوم الرِّحلة لغةً واصطلاحًا.

المبحث الثاني: دوافع الرّحلة وأغراضها.

المبحث الثالث: أهمية الرّحلة والرّحلة العربية المعاصرة إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر.

المبحث الرابع: نماذج عن الرّحلات المغاربية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر (الجزائر والمغرب).

لقد مثلت الرحلة موضوعا شيّقاً منذ القدم، ولذلك باتت تشكل لوحدها وثيقة ومصدراً هاما يجد فيه الباحثون والمؤرخون كثيراً من الإجابات عن التساؤلات العديدة حول مختلف أحوال البلدان.

المبحث الأول: مفهوم الرِّحلة لغةً واصطلاحًا.

1/لغة: لقد ورد لفظ الرّحلة في عدة معاجم وقواميس بحيث:

اهتم ابن منظور بالرّحلة اهتماما خاصا باعتبارها مادة متداولة على نطاق واسع ونابعة من واقع البيئة العربية[1] بحيث جاء في **لسان العرب** أنَّ " الرَّحْلُ: مركب البعير والناقة، وجمعه أرحُلٌ ورِحالٌ، وفي الحديث: أنَّ النبي ﷺ سجد فركبه الحسن فأبطأ في سجوده، فلما فرغ سُئِل عنه فقال: إنَّ ابني ارْتَحلني فكرهت أن أُعجِله، أي جعلني كالرّاحلة فركِب على ظهري. وقد صح أنَّ الرَّحلُ والرّحالة من مراكب الرجال دون النّساء، ويقال: رَحَلَ الرجل إذا سار، وأرحلته أنا، ورجلٌ رحولٌ وقوم رُحل أي يرتحلون كثيراً، ورجلٌ رحّالٌ: أي عالمٌ بذلك مجيدٌ له، وارتحل البعير رحلة: سار فمضى، ثمَّ جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً."[2]

وجاء في مقاييس اللّغة أنَّ: " رَحَلَ أصلٌ واحد يدل على المضي في سفر، يقال: رَحَلَ، يرحل، رِحلة، وجَمَلٌ رحيلٌ: أي ذو رحلة إذا كان قويا على الرّحلة، والرّحلة: الارتحال، والرّاحلة: المركب من الإبل ذكراً كان أو أنثى."[3]

يلاحظ أنَّ مشتقات المادة جميعاً تدور حول محورٍ واحدٍ وهو الحركة، فالرحلة في جوهرها حركة وانتقال، وعليه من خلال ما سبق من المفهوم اللّغوي لكل من عبد الرزاق الموافي وابن منظور وابن فارس نجد أنَّهم يتفقون في معنى واحد للرحلة، فوسيلة النقل قديماً كانت البعير وعليه فإنَّ معنى الرحلة هي الانتقال والسير والحركة.

---

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مصر، دار النشر للجامعات المصرية، ط 1، 1995م، ص 23.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مج 6، بيروت- لبنان، دار صادر للطباعة والنشر، ط 1، د.ت، ص ص 121- 123.

[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تج: عبد السلام هارون، ج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1399هـ- 1979م، ص 479.

2/اصطلاحاً:

-عرفها الإمام الغزالي في ذكره لفوائد السفر وفضله ونيته أنَّها نوع حركة ومخالطة، لها فوائد كما لها آفات وللمسافر فيها مقصد ومطلب يسافر إليه[1].

-الرّحلة سواءً كانت برية أو بحرية هي إنجاز أو فعلٌ فرديٌ أو جماعيٌ لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المعيَن بين المكان والمكان الآخر، ويأتي هذا الانجاز من أجل هدفٍ معين[2].

-الرّحلة في جوهرها حركة وهذه الحركة ذات هدف معين قد يتحقق أو لا يتحقق وفي كلتا الحالتين يتم فيها اكتساب خبرات علمية وفكرية نابعة عن المخالطة[3].

-الرحلة هي كتابة يحكي فيها الرّحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه مازجاً ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتَحل إليهم[4].

-كما اعتبرها جبور الدويهي تدويناً دقيقا ويومياً للمشاهدات والملاحظات[5]، وأمام هذه التعريفات اختلف الباحثون على مفهوم جامع لاصطلاح الرحلة فالمؤرخون يرونه جزءً من علم التاريخ، والجغرافيون يدخلونه ضمن علم الجغرافية، فيما يعتبره دارسوا الأدب مصدراً من مصادر تاريخ الأدب، بمعنى أنَّ كُلاً يراه حسب توجهه واختصاصه[6].

وعلى هذا الأساس نجد أنَّ المفهوم الاصطلاحي للرحلة يدور حول مفهوم الحركة والانتقال من مكان لآخر من أجل هدف معين.

---

[1] أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي، إحياء علوم الدين، مج 2، بيروت- لبنان، دار الكتب لعلمية، ط 1، 2008م، ص 304.

[2] صلاح الدين الشامي، الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في معرفة الخدمة الجغرافية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، مج 13، 1983م، ص 1077.

[3] ناصر عبد الرزاق موافي، المرجع السابق، ص 25.

[4] جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة مُحَمَّد خيضر، كلية الآداب واللغات، الجزائر- بسكرة، 2014- 2015م، ص 08.

[5] جبور الدويهي، الرحلة وكتب الرحلات الأوروبية إلى المشرق حتى نهاية القرن 18، مجلة الفكر العربي، العدد 32، 1973م، ص 58.

[6] نعيمة الطيب بوجمعة، الرحلة العلمية وأهميتها في مسيرة العالم ابن مرزوق الحفيد (482هـ- 1346م)، المجلة الخلدونية، مج 12، العدد 1، الجزائر- تيارت، 2016م، ص 121.

المبحث الثاني: دوافع الرّحلة وأغراضها.

1/دوافع الرحلة:

لقد تعددت دوافع الرّحالة وأغراضهم واختلفت من شخص لآخر ومن زمان لزمان آخر، فالرّحلة هي غاية تحركها جملة من الدوافع والتي تتمثل عموماً في دوافع ذاتية وأخرى عامة.

أولا: الدوافع الذاتية:

وهي الأساس الذي تبنى عليه الرحلة فقد تكون رغبة في العزلة والتأمل اللذان يمثلان ضرورة لازمة في شخصية المفكر "الرحالة" كما قد تكون من أجل الإبداع فقد كان بعض الشعراء العرب يرحلون إلى البادية إذا تعذر عليهم قول الشعر، كما قد تكون بسبب الملل الناجم عن الحياة الرتيبة التي يحياها الانسان رغبة منه في التجديد والتغيير، وقد يخرج الرّحالة أيضا إرضاءً لفضوله وحبا للاستطلاع أو طلبا للشهرة مثلا، كما قد تصبح الرّحلة داءً لا يمكن الخلاص منه فيطلق على صاحبها اسم "الجوال" أو "الجوالة"، وباعتبارها مصدراً حياً من مصادر زيادة الخبرات فإنَّ الكثيرين يلجؤون إليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية لمواجهة الحياة في مختلف الظروف[1].

ثانيا: الدوافع العامّة:

تختلف الدوافع العامة للرحلة نظراً لاختلاف أنواعها، بحيث يمكن إجمالها عموماً فيما يلي:

1. دوافع دينية:

إنَّ من أشرف الأهداف التي يتمناها الانسان زيارة الأماكن المقدسة من أجل العبادة[2] استكمالا للدين أو طلبا للمغفرة أو أملا في التوبة، حيث يصف الكثير من هؤلاء طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو رحلات مختلفة[3]. فمثلا قد حث الإسلام على ذلك حيث قال ﷺ: **" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى"**[4].

---

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص ص 26- 28.

[2] أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، مج 2، ص 308.

[3] شوقي ضيف، الرّحلات، القاهرة، دار المعارف، ط 4، 1119م، ص 09.

[4] أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ص 308.

وقد يرتحل المسيحيون واليهود أيضا إلى أماكنهم المقدسة، كما قد يكون الدافع منها أيضاً التبشير بالديانات[1].

2. دوافع علمية أو تعليميّة:

إنَّ هذا الغرض يزداد الارتحال لأجله كثيراً وذلك للاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم في مختلف المجالات[2]، فهناك ما يتواجد في بلاد ما ولا يتواجد في بلاد غيرها، وعليه رحل طلاب العلم شرقاً وغرباً للتعليم أو التعلم، ومنها كذلك السفر للمؤتمرات العلمية ومعارض الكتب الدّولية[3]. وعليه تعتبر الرّحلة من أجل العلم معلمٌ ممتاز على المستويين النظري والعلمي.

3. دوافع سياسية:

وهي التي تكون من أجل القيام بأعمال رسمية، أو خدمة للدولة التي ينتمي إليها الرّحال[4]، فيكون هدفها محدد حسب رغبة السلطة، كالوفود والسفرات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى لتبادل الرأيٍ وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام أو تمهيداً لفتحٍ أو غزوٍ مثلا[5].

4. دوافع اقتصادية:

وهي التي لا يخرج نطاقها عن الرغبة في اكتشاف أسواق جديدة، واكتساب أكبر قدر ممكن من الأموال وبذلك طبعت بالطابع المادي البحت[6]، كالتجارة وتبادل السلع، كما قد تكون هربا من الغلاء وسعياً وراء اليسر والوفرة والعمل[7].

---

[1] مُحَمَّد بن سعود الحمد، موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة معجم بيبليوغرافي، دار الكتب والوثائق، ط 1، 1428هـ- 2008م، ص 11.

[2] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، 2002م، ص 19.

[3] مُحَمَّد بن سعود الحمد، المرجع السابق، ص 11.

[4] ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص 28.

[5] عيسى بن الذيب، الحسن بن الطيب بوعشرين تطريب الأسماع بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع، مجلة الواحات للبحوث والدّراسات، مج 8، العدد 1، الجزائر، 2015م، ص 1002.

[6] المرجع نفسه.

[7] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 20.

5. دوافع سياحية أو ثقافية:

وهي التي تصدر عن الرغبة في الثقافة والمعرفة وحب السَّفر لذاته والتنقل لتغيير الأجواء بالمشاهدة والمغامرة والمعرفة الجديدة من خلق الطبيعة والبشر، فأغلب السائحين من دول العالم ينفقون الكثير من أجل هذا الهدف رغبة منهم في التعرف على حضارة القدماء مثلا كالحضارة المصرية، ومن السائحين أيضا من يسعون إلى زيارة باريس مثلا لرؤية متحف اللوفر ومنهم من يسافر أمريكا لمشاهدة تمثال الحرية وإلى غير ذلك[1].

وعليه يمكن القول أنَّ أسباب الرحلة ودوافعها لا تظهر لنا إلا من خلال استقراء المضمون الرحلة ومعرفة الظروف التي كتبت فيها خاصة الظروف التاريخية لأنها تسهل لنا بشكل كبير فهم هذه الرحلات وتقييم المعلومات الواردة فيها وتحديد هدفها فليس من عادة كتَّاب الرحلات أن يذكروا الأسباب الحقيقية لرحلتهم والأهداف المرجوة منها[2].

2/أنواع الرحلة:

لقد اختلفت تصانيف الباحثين لأنواع الرحلات فكل صنفها حسب الحيثية التي اختارها والزمن الممتد لها ومن هذه التصانيف اخترنا ما يلي:

- تصنيف الدكتور الموافي الذي قسم الرّحلة إلى أربعة أنواع: [3]
  1. الرّحلات الرسمية.
  2. رحلة التجارة والعجائب.
  3. الرّحلة العلمية.
  4. الرّحلة الدينية.
- تصنيف الدكتور صلاح الدين الشامي في كتابه الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة، إذ قسم الرّحلة إلى ستة أنواع (06) منها ثلاثة قبل الإسلام وهي:[4]

---

[1] مُحَمَّد بن سعود حمد، المرجع السابق، ص 12.

[2] خميسي سعدي، الرَّحلات الأوروبية الحديثة والمعاصرة مصدر لتاريخ الوطن العربي "رحلة الدكتور شو أنموذجا"، المجلة التاريخية الجزائرية، مج 5، العدد 1، الجزائر، 2021م، ص 321.

[3] ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص 34.

[4] صلاح الدين الشامي، الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، د. ط، ط، 1999م، ص 112.

1. رحلة الحج.
2. رحلة الحرب.
3. رحلة السّفارة.

وثلاثة أخرى بعد الإسلام وهي:

1. رحلة الحج.
2. رحلة طلب العلم.
3. رحلة التجوال والطواف.

المبحث الثالث: أهمية الرّحلة والرّحلة العربية المعاصرة إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر ميلادي.

1/الأهمية العامة للرّحلة:

تعد الرحلة مصدراً من مصادر كتابة التاريخ وهي قديمة قدم الإنسان، لعبت دوراً مهما في إيجاد جسور التواصل والتلاقي بين الشعوب وانتقال المعارف والعادات المختلفة[1]، وعليه تكتسب أهمية كبيرة فهي عون للمؤرخ والجغرافي معاً، ومن هنا كان لها قيمتان عظيمتان قيمة علمية وأخرى أدبية.

تكمن قيمتها العلمية فيما تحتويه من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها وذلك من خلال ما يدونه الرّحالة من التدوين المعاين في أغلب الأحيان جراء اتصاله المباشر بالطبيعة والنّاس وبالحياة خلال رحلته، وبهذا يمثل الرّحالة دور النّاقل لهذه المشاهد ليَضعها بين أيدي المؤرخين أو الجغرافيين أو علماء الاجتماع مثلا كلاً حسب تخصصه واختصاصه[2].

أمّا القيمة الأدبية للرحلات فتتجلى فيما تعرضه من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنّي، علاوة على ذلك ساهم أدب الرّحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللّهو

[1] محمّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي آغا فرندة ورحلته إلى فرنسا سنة 1878م، مجلة البحوث التاريخية، مج 07، العدد 01، الجزائر- قسنطينة، جوان 2023م، ص 605.

[2] حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، بيروت- لبنان، دار الأندلس للطباعة والتوزيع، ط 02، 1983م، ص ص 06- 07.

والعبث اللّفظي والتكلف في تزويق العبارة إيثاراً للتعبير السهل المؤدي للغرض ليُنضِجه بغنى تجربة صاحبه مع ما يميّزه في أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق[1].

2/أهمية الرّحلة العربية إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر:

إنَّ تاريخ الرحلات العربية الإسلامية وبالرغم من طوله وقدمه إلّا أنه شهد فترتي ازدهار متباعدتين اختصت كل منهما بظروف واهتمامات تختلف عن الأخرى، فإذا كانت الفترة الأولى قد بدأت مع عصر الفتوحات الإسلامية والتي تنقل فيها الرحالة في حدود العالم الإسلامي بصفة خاصة بغض النظر عن اختلاف أهدافهم، فإنَّ الفترة الثانية قد بدأت مع حركة النَّهضة العربية وبداية الاتصال بالغرب في أوائل القرن التاسع عشر ميلادي (الثالث عشر هجري) واستمرت حتى وقتنا الحالي، بحيث تغيَّرت وجهة رّحالة هذا العصر فارتحلوا من عالمهم الإسلامي وقصدوا أوروبا بغية الكشف عن سر تقدمها[2]، فاحتك العرب بالغرب عبر هذه الرحلات التي اعتبرت من أهم الوسائل التي عرَّفتهم بمظاهر الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر، كما كان لها دور كبير في نشر ما نجم من احتكاك بالغرب من أفكار ومبادئ ونظم جديدة عملت على التأثير في المجتمع العربي تدريجياً[3].

لقد برزت الرحلة العربية خلال القرن التاسع عشر كأحد أهم قناة لمعرفة الآخر واكتشاف تنظيمات ووسائل تدبيره لذاته ومكامن قوته وضعفه للاستفادة منها عند الضرورة، وعليه تظهر أهمية الرّحلة العربية إلى أوروبا في نقطتين أساسيتين:

الأولى تتمثل في كونها تتضمن وصفا يكاد يكون شاملاً ومفصلاً عن مختلف جوانب الحياة المتقدمة في الغرب حيث اهتمت بالتعريف بأهم منجزات أوروبا الحضارية مبرزة التقدم العمراني، إضافة إلى اهتمامها برصد أوجه النشاط السياسي ومؤسساته القائمة ووظائفه واختصاصه إلى جانب تشريع القوانين، واهتمامها بالتنظيمات الاقتصادية كما لم تخلوا أيضا من وصف العادات والتقاليد الاجتماعية التي سادت الأوساط الغربية[4] وكل ما له علاقة بالنشاط العلمي ومؤسساته فعبرت بذلك عن لحظات الإعجاب والانبهار عند الرحالة العرب بما وصل إليه الغرب من تقدم في مختلف الميادين.

---

[1] حسني محمود حسين ، المرجع السابق، ص ص 08- 09.

[2] حسين مُحَمَّد فهيم، أدب الرّحلات، دار عالم المعرفة، د. ط، يونيو 1989م، ص ص 94- 95.

[3] نازك سبايارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ط 2، 1992م، ص ص 08- 09.

[4] فاطمة الزهراء الرحماني ومُحَمَّد درّاج، الرحلة أداة تواصل بين العرب والغرب "الرحلة المصرية والتونسية نموذجاً"، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية للعلوم الإنسانية و الاجتماعية، مج 10، العدد 04، 2018م، ص 69.

أمَّا النقطة الثانية فتتمثل فيما تحتويه هذه الرّحلات من تفسيرات وتحليلات فكرية لأسباب الاختلاف بين المنظومة الحياتية للمجتمعات الأوروبية التي زارها الرّحالة العرب من جهةٍ والوسط الذي قدموا منه من جهةٍ أخرى فهي تتضمن مقارنات عقدها أصحابها بين ما حققه الآخر من تقدم مقابل ما تعانيه الأمة الإسلامية من تدهور ومن ويلات الحكم الاستبدادي لأنظمة الحكم، ومنه الدعوة إلى تغيير مظاهر الحياة والمجتمع من خلال الاقتداء بالنموذج الأوروبي[1].

المبحث الرابع: نماذج عن الرّحلات المغاربية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر (الجزائر والمغرب).

1/رحلة سليمان بن صيّام:

1. التعريف بابن صيّام:

هو سليمان بن صيّام من مواليد مليانة ولد في فيفري 1817م الموافق لسنة 1232هـ، كان ينتمي إلى أسرة تنتمي إلى أسرة الأجواد والفئة المرموقة التي حرصت على المشاركة إلى جانب السلطات الاستعمارية في إدارة السياسة العامة بالبلاد فكان والده من أعيان مليانة، أمَّا مستواه التعليمي وتكوينه الثقافي فلم يثبت أي شيء عنه[2].

كان ابن صيّام من الذين سهلوا التوغل الفرنسي بالمنطقة[3] فقد تطوع في الجيش الفرنسي مبكراً وأدى مهاماً عسكرية كثيرة، وشارك أيضا في النشاطات السياسية التي نظمت بالجزائر منذ سنة 1842م إلى 1847م، إضافة إلى مشاركته في عدة معارك خلال هذه الفترة، ترأس ابن صيّام مكتبا خيريا (جمعية الإغاثة) بالعاصمة[4]، وقد ولّاه الفرنسيون منصب آغا مليانة مسقط رأسه منذ نهاية المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر[5].

---

[1] فاطمة الزهراء الرحماني ومُحَمَّد درّاج، المرجع السابق، ص 69.

[2] محمود حيدر، تجارب استغرابية: الغرب في مرآة الرحالة العرب والمسلمين، العراق، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط 1، 2019م، ص 354.

[3] عبد الحميد عومري، الرحلات الجزائرية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر " رحلة ابن صيّام والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية أنموذجا"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج 9، العدد 1، الجزائر، 2024م، ص 197.

[4] محمود حيدر، المرجع السابق، ص ص 354- 355.

[5] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار الغرب الإسلامي، د. ط، 1998م، ص 474.

أعلن ابن صيّام رفضه لإحدى الثورات الشعبية التي شهدتها منطقة الغرب الجزائري سنة 1864م (ثورة أولاد سيدي الشيخ) فقد أرسل مع غيره من رؤساء العرب بيانا إلى نابوليون الثالث مستنكراً هذه الثورة، كما رفض أيضا دعوة الحاج مُحَمَّد المقراني إلى الثورة سنة 1871م[1]. واصل مهامه الإدارية فحظيَ بثناء ورضى السلطات الاستعمارية عنه ونتيجة لذلك تم تكريمه بعدة رتب تشريفية وأوسمة ونياشين منها: وسام فارس جوقة الشرف سنة 1860م ورتبة قائد جوقة الشرف سنة 1866م بالإضافة إلى نيشان الشرف الذهبي من رتبة الشرف الأولى بعد عمله المتفاني[2].

أما فيما يتعلق بتاريخ وفاة ابن صيّام وجدنا فيه اختلاف بسيط حيث ذكر أبو القاسم سعد الله وفاته سنة 1896م، في حين أنَّ محمود حيدر ذكر أنه توفي بتاريخ 14 جوان 1898م[3].

2. الرّحلة ومضمونها:

كتب ابن صيّام رحلته إلى فرنسا عام 1852م، بحيث جاءت هذه الرحلة في إطار زيارة رسمية أشرفت على تنظيمها السلطات الاستعمارية لصالح مجموعة من الأعيان الجزائريين[4] بقيادة الحاكم العام "الماريشال راندون"[5] الذي أمرهم بالتوجه إلى العاصمة الفرنسية لحضور توزيع الرتب على الجنود وكبار الجيش الفرنسي تحت إشراف نابوليون الثالث، استغرقت هذه الرحلة شهراً كاملا من 25 أفريل إلى غاية 25 ماي 1852م الموافق ل05 رجب إلى 05 شعبان 1268هـ[6].

باشر صيّام كتابة رحلته بعد عودته وأنهاها في 11 جوان من نفس السنة، حظيت هذه الرحلة بالاهتمام من قبل السلطات الاستعمارية فطبعتها بمطبعة الدولة ونشرتها بشكل منفصل باللغتين العربية والفرنسية، فهي تسعى

---

[1] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 7، ص 474.

[2] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 355.

[3] المرجع نفسه، ص 354.

[4] المرجع نفسه، ص 356.

[5] **راندون:** اسمه "جاك لويس سيزار ألكسندر أنكونت" مارشال فرنسا ووزير عضو مجلس الشيوخ، ولد في 25 مارس 1793م بفورونوبل، وفي 11 ديسمبر 1851م أصبح حاكماً عاماً على الجزائر تميزت إدارته بحملات عسكرية مهمة كحملة البابور عام 1852م، ينظر:

Narcisse Faucon, Le livre d'or de l'Algérie, histoire politique, militaire, administrative, événements et faits principaux ; biographie des hommes ayant marqué dans l'armée, les sciences, les lettres, etc., de 1830 à 1889, T1, Paris, 1889, pp 460-461.

[6] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 7، ص 475.

بمختلف الطرق للتواصل مع الجزائريين في إطار مشروعها الإدماجي الذي تبنته حكومة نابوليون. بدأ رحلته بالشكر والثناء بعد الله لشخص السلطان نابوليون ووضح هدفها ودواعيها وراعيها[1]، حيث قال: " **إنّي أمشي لرؤية أرض الشمال ذات المحاسن العديدة والكمال، أمرني من يجب عليَّ امتثال أمره... صاحب الرأي السديد والجود... راندون... فامتثلت أمره السعيد... وركبت من مليانة دار السَّكنى إلى الجزائر.**"، وباشر بعدها في سرد مشاهداته فوصف ركوبهم البحر، ووصولهم إلى الضفة الأخرى منه[2].

كانت موضوعات الرحلة في مجملها تدور حول وصفه لنمط العمران بالمدن الفرنسية ووسائل النقل المختلفة التي انتقل عبرها (قطار، سفينة، عربة)، والمرافق العمومية من مسارح ومتاحف ودار السكة إضافة إلى وصفه القوات العسكرية الفرنسية والعتاد المتطور وغيرهما، مع ذكره أيضا لبعض الطقوس الاحتفالية والعادات الخاصة بالفرنسيين كحبهم للمطالعة والفنون واهتمامهم بالعلوم والمخترعات...الخ، وفي الأخير أثنى ابن صيّام على بعض الشخصيات السياسية والعسكرية التي قابلها وعلى رأسها نابوليون الثالث والمارشال راندون والجنرال سانت أورنو[3] "Saint_Arnaud"[4]، ومن خلال وصفه لمختلف مشاهداته بيَّن تأثره الكبير بمظاهر الحياة الفرنسية.

2/ رحلة مُحَمَّد الحجوي:

1. التعريف بمحمد الحجوي:

ولد مُحَمَّد الحسن العربي الحجوي الثعالبي في 20 سبتمبر 1874م الموافق ل 08 شعبان 1291هـ بفاس، ينتمي إلى نسب جعفر ابن أبي طالب وزينب بنت علي رضي الله عنهما، نال الشهادة من جامع القرويين ثمَّ درّس طلبتها سنة 1898م إلى جانب عمله بالتجارة والفلاحة وانشغاله بالتدريس والتأليف وارتياد الآفاق فشغل عدة مناصب مخزنية كعضو المجلس الأعلى للتأمين ووزير عدل سنة 1944م[5].

---

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص ص 356- 357- 358.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 7، ص 475.

[3] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 357.

[4] **الجنرال سانت أورنو: Saint Arnaud** (جاك لوروادي) مارشال فرنسا، ولد عام 1798م في باريس وتوفيَ عام 1884م، تم تعيينه نقيبا عاما سنة 1837م، قام بالهجوم على قسنطينة والاستلاء على معسكر كما تمكن أيضا من قمع انتفاضة بومعزة وأجبره على الاستسلام، تمت ترقيته قائداً على قسنطينة سنة 1850م، ينظر:

Narcisse Foucon, Op.cit, p 490.

[5] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 215.

حمل الحجوي مشروعاً تحديثيا نادى به في معظم المناسبات التي تناولت ميادين التعليم والاقتصاد والأصول والتفسير والحديث والسيرة والأدب والتصوف أيضا، وذلك من أجل القفز بالمغرب إلى رحاب النهضة والتمدن وذلك بمساعدة الحماية الفرنسية في إطار يتناغم مع القيم المغربية ومقاصد الشريعة الإسلامية، وعلى هذا الأساس حاول الحجوي في مطارحاته التوفيق بين الدين والتجديد على اعتبار أنَّ الدين لا يتناقض مع الحداثة والتجديد. ولعل من أبرز مؤلفاته: كتاب الفكر السياسي في تاريخ الفقه الإسلامي، وكتاب مختصر العروة الوثقى، الرّحلة الأوروبية 1919م، الفتح العربي لإفريقيا الشمالية والتعاضد المتين بين العقل والعلم والدّين. توفيَ الحجوي بالرّباط يوم الإثنين 08 أكتوبر 1956م الموافق ل 03 ربيع الأول 1376هـ ودفن بفاس[1].

2. الرحلة ومضمونها:

نص الفقيه مُحَّد بن الحسن الحجوي كتاب الرّحلة الأوروبية، نشره وأعده الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي في ملحق ضمن كتابه "أوروبا في مرآة الرّحالة، صورة الآخر في أدب الرّحلة المغربية المعاصرة"، انطلقت هذه الرحلة يوم السبت 05 جويلية 1919م إلى غاية يوم الأحد 24 أوت من نفس السنة، كانت هذه الرّحلة بأمر من السلطان يوسف حيث توجه الفقيه الحجوي ضمن وفد رسمي مغربي ضمَّ عشرة أعضاء إلى باريس قصد المشاركة في احتفالات فرنسا بعيدها الوطني ونصرها مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وعليه يمكن إدراج هذه الرحلة ضمن صنفين من الرّحلات فهي رحلة سفارية رسمية في وجهتها نحو فرنسا ثم سياحية في وجهتها نحو إنجلترا.

شملت هذه الرحلة موضوعات متعددة سياسية وعلمية واجتماعية ودينية وغيرها، أبرز الحجوي من خلالها معارفه وانطباعاته وآراءه ومواقفه بالإضافة إلى نهجه الاصلاحي وخطاب النّهضة الذي تبناه الرّحالة في وقت مبكر من تاريخ الفكر المغربي الحديث، وعليه تعتبر هذه الرّحلة وثيقة نادرة تعكس بعض موضوعات الصراع بين العرب والغرب وعن الآخر وعالمه، فهو يبتعد خلالها عن كل تلفيق أو تجاهل أو تزوير ويتميّز بالأمانة، وضع المؤلف لرحلته عناوينا فرعية مع بعض الهوامش التي بها شروح وتعليقات والتي ساهمت بدورها في التعرف على أحداث الرّحلة وأمْكِنتها وتتبع مسيرتها[2].

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص ص 216- 217.

[2] محمد أحمد أنّقار، صورة الآخر وصورة الذات في الرحلة الأوروبية لمحمد الحجوي، مجلة الأفكار: أدب الرحلة من وإلى المغرب سؤال النهضة والتحديث، الرباط، 2016م، ص ص 46- 47.

رصد الحجوي من خلال مشاهداته ومعايناته نمط النظام المعتمد في أوروبا وخصائصه الفريدة معتبراً إيّاها سبب التقدم الذي تعيشه أوروبا فهو يضبط كل مؤسسات الدولة من النظام السياسي إلى نظام المرور، في امتثال تام لكل مكونات المجتمع دون تمييز[1].

تحدث الحجوي أيضاً عن ركن آخر من أركان النهضة الأوروبية وهو التعليم الذي اعتبره سرُ نهضة أوروبا وذلك من خلال عنايتها بمناهج التعليم ومؤسساته ومحافله العلمية مع اهتمامها بالعلم والعلماء في مختلف المجالات والتخصصات في المقام الأول، كما تطرق أيضا لذكر أنظمة التجارة في فرنسا وعلومها معتبرها أضلاع النهضة[2].

وعليه اعترف خطاب هذه الرّحلة بعمق الهوة الحضارية التي تفصله عن الآخر بمسافات، حيث جاء هذا الاعتراف بناءً على الاتصال المباشر بفضاء الآخر، وبالتالي شكلت هذه الرحلة لدى الحجوي جواباً عن سؤال النهضة وفرصة لبسط أركان مشروعه الذي يقوم على أساس العلم والنظام والاقتصاد، فالانفتاح على هذه الحضارة الأوروبية لا يعني في مشروعه الإطلاقية في تبني قيَمها ومبادئها والقطع مع التراث وطمس الهوية وإنَّما في الحدود التي لا تخالف المقاصد الشرعية الإسلامية[3].

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 220.
[2] المرجع نفسه، ص ص 223- 227.
[3] المرجع نفسه، ص 231.

الفصل الثاني

فرنسا في عيون الفقيه محمد الصفار

من خلال رحلته

المبحث الأول: ترجمة مُحَمَّد الصفار.

المبحث الثاني: السياق التاريخي للرحلة.

المبحث الثالث: التعريف بالرحلة.

المبحث الرابع: دراسة مضمون الرحلة.

لقد شكلت الرحلة خلال القرن التاسع عشر إلى أوروبا وثيقة تاريخية، وسياسية وفكرية تعكس موقف النخبة المخزنية المغربية من التقدم الأوروبي وأسئلة النهضة والرقي الحضاري، وهي التي يقصد بها ذلك النوع المسمى بالرحلة السفارية، أي تلك التي كان يقوم بها رجال من حاشية السلطان، يتم تسفيرهم إلى الديار الأوروبية برفقة مبعوثين رسميين، لتسجيل مشاهداتهم وانطباعاتهم ثم رفعها إلى السلطان، أي أنَّ هذا النوع من الرحلات يكون بمثابة تقارير رسمية من ملكية المخزن في الغالب الأعم[1]. وفي هذا الإطار تمت رحلة الفقيه مُحَمَّد الصفار التطواني إلى باريس.

المبحث الأول: ترجمة مُحَمَّد الصفار.

هو مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الكريم الصفار، ولد بمدينة تطوان بين سنتي 1809 و1810م[2]، ذو أصول أندلسية فقد كان أجداده من العوائل الأندلسية المسلمة التي نزحت إلى المغرب إثر الطرد الذي تعرض له المسلمون في الأندلس على يد الإسبان الكاثوليك خلال نهايات القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، استقرت هذه العائلات في مدينة تطوان قرب الحدود الإسبانية حيث استوطن العديد من الأندلسيين النازحين[3].

تلقى الصفار المبادئ العلمية على مشايخ تطوان، واتجه بعد ذلك إلى فاس لقراءة العلوم بجامع القرويين الذي مكث فيه مدة استغرقت أزيد من ثماني سنوات انهمك خلالها في دراسة علوم الفقه والحديث والنحو والأصول، وبعد عودته إلى تطوان في 1252هـ 1836م أصبح يلقب بالفقيه دليلا على إحاطته بالفقه وما إليه من العلوم الشرعية[4].درس الصفار في مساجد تطوان وزاول وظيفة العدالة التي تعتبر من أرقى الوظائف في تلك الفترة فلا يمارسها إلا الصفوة من المتعلمين والفقهاء المعروفين بالنزاهة والعلم والاستقامة[5].

---

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 119.

[2] هناك اختلاف في تاريخ ميلاده بالتحديد لكن ذهب الكثير إلى أنَّ عمره عندما قام بالرحلة كان بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين وبذلك يكون تاريخ ميلاده بين عامي 1810/1809م ينظر:
المرجع نفسه، ص 120.

[3] المرجع نفسه.

[4] سوزان ميلار، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845- 1846م، أبوظبي (الإمارات)، دار السويد للنشر والتوزيع، ط 1، 2007م، ص ص 68- 69.

[5] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 120.

حظيَ الصفار بالاحترام والتقدير عند التطوانيين، وانغمس في تلك البيئة المريحة التي وفرتها له تطوان مسقط رأسه، فنعم بحياة عائلية مستقرة بعد زواجه بالشريفة مباركة بنت المؤذن التي أنجب منها بنتان تزوجتا في تطوان، وبعد مغادرته لتطوان فتح بيتا جديدا في فاس وتزوج هناك مرات عديدة إلى أن بلغ عدد زوجاته أربع زوجات[1]، أنجب من إحداهن ولدين العباس وعبد الله اللَّذان توجها إلى بلاد حمير لقراءة القرآن رفقة أولاد السلطان المغربي المولى الحسن[2] بعد وفاته[3].

هذه الحياة الهادئة التي عاشها الصفار لم تبق على حالها، فقد نسج الفقيه عدة علاقات مع رجال النخبة المخزنية التي كان محط أنظارها من قبل، فأصبح كاتبا عاما لعبد القادر أشعاش في كل القضايا ذات الصبغة الشرعية[4]، وبقي في الكتابة نحو سنة ثم عينه السلطان المولى عبد الرحمان[5] وزيرا وذلك سنة 1270هـ، 1853م قائلا له:" **إنّي قلدتك أمور الرعية التي طوّقت بمقالدها فإياك أن تخفي عنّي أمر كل مظلوم يشتكي من مظلمة وقعت له...**"، وبعد وفاة السلطان عبد الرحمان نُقل الصفار إلى وزارة الشكايات فكان أول وزير لها[6].

---

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 70.

[2] **المولى الحسن:** هو الحسن بن مُحَمَّد بن عبد الرحمان بن هشام، من المرجح أنه ولد بتاريخ 1831م، ينتمي من حيث النسب إلى الأسرة العلوية فيما ينتهي نسبه البعيد إلى الجد الخامس والثلاثين وهو علي بن أبي طالب، نشأ في حجر جده عبد الرحمان الذي اعتنى بتربيته منذ حداثته، ثم اعتنى به والده السلطان مُحَمَّد بعد وفاة جده فاهتم بتعليمه وبعد وفاة والده تمت مبايعته فجلس على كرسي العرش وشرع في الحكم وبناء الدولة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بين 1873/ 1894م.ينظر:
مُحَمَّد العربي معريش، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول، بيروت (لبنان)، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1989م، ص ص 61- 68

[3] العباس بن ابراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج 7، الرباط، المطبعة الملكية بالرباط، ط 2، 1413هـ-1993م، ص 35.

[4] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 70.

[5] **المولى عبد الرحمان:** هو عبد الرحمان بن هشام بن مُحَمَّد الحسيني، من ملوك الدولة العلوية بويع بعد وفاة عمه سليمان بن مُحَمَّد، عرفت علاقته بالأمير عبد القادر مرحلتين شهدت أولاهما مساندة مغربية هامة للمقاومة الجزائرية بينما شهدت الثانية منهما كثيرا من الخلافات. توفي عام 1860م.ينظر:
كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 178.

[6] العباس بن ابراهيم السملالي، المرجع السابق، ص 34.

توفيَ الفقيه مُحَمَّد الصفار في التاسع من ذي القعدة 1298هـ الموافق لثالث من أكتوبر 1881م، ودفن داخل قبة سيدي يوسف بمراكش[1].

المبحث الثاني: السياق التاريخي للرحلة.

عكست الرحلات السفارية التي وجهها سلاطين المغرب خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حاجة الدولة إلى الانتصار لخيار التحديث والإصلاح السياسي والإداري والاقتصادي على حساب خيار التقليد الذي لم يعد مجديا، فمنذ هذه الفترة أوفد سلاطين المغرب ما يزيد عن عشر سفارات إلى أوروبا أسفرت عن تأليف رحلات لا تزال شاهدة على إرهاصات التفكير الاصلاحي خلال مرحلة التمدد الأوروبي بمنطقة الغرب الإسلامي، وبالنظر إلى قرب المغرب من أوروبا واحتكاكه المستمر معها وجد نفسه منخرطا بشكل مبكر في لجة الصراع الحضاري مع أوروبا المسيحية[2].

شهد المغرب في هذه الفترة جملة من الصراعات على الصعيدين الداخلي والخارجي، فعلى الصعيد الداخلي شهد ظهور مجموعة من الفتن بين المخزن والقبائل بسبب موجة الجفاف والأوبئة التي تضرر منها السكان، الأمر الذي انعكس سلبا من خلال ارتفاع مقادير الضرائب والمساهمات التي كانت تدفعها القبائل لفائدة المخزن[3]،بالإضافة إلى سياسة المخزن إزاء القبائل خصوصا قبل ظهور الخطر الأجنبي الذي كان يعمل على إضعافها لترسيخ سلطة المخزن، الأمر الذي أدى إلى ظهور الاضطرابات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[4].

أمَّا على الصعيد الخارجي فقد شرعت أوروبا في التحرش بالمغرب من أجل إضعافه والتمكين لمشروعها الاستعماري لاحقا، في إطار مخطط واسع تقوده الدول الأوروبية المتسابقة على تقاسم النفوذ في بلدان شمال إفريقيا والمشرق[5]، فإلى جانب المضايقات الإسبانية التي واجهها المغرب من الشمال شهد تهديدات أخرى من الشرق

---

[1] مُحَمَّد داود، مختصر تاريخ تطوان، تطوان – المغرب، المطبعة المهدية، ط 1، 1375هـ/1955م، ص 313.

[2] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 119.

[3] المرجع نفسه، ص 122.

[4] ثريا برَّادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، الدار البيضاء– المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1997م، ص 145.

[5] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 122.

وذلك بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م، وعليه أصبح المغرب محاصرا ومهددا أكثر لهذا التمدد الأوروبي.

مع سنة 1843م واتخاذ القيادة الفرنسية قراراً بملاحقة الأمير عبد القادر، وتواجه الطرفين عند جبل أولاد عوف، بدأت مرحلة جديدة من المقاومة الجزائرية انطلاقا من التراب المغربي على شكل غارات خاطفة، وبذلك دخل المغرب على خط المواجهة الفرنسية فبرهن حكومة وشعبا عن تعاطفه مع الجزائر وتشجيعه لحركتها الجهادية، ومن بعض المبادرات التضامنية تزويده للمقاومة الجزائرية بكمية كبيرة من الذخائر الحربية ومائتي بندقية ومائتي سيف سنة 1834م، وقبول السلطان المولى عبد الرحمان أن يتولى الأمير عبد القادر شؤون الشعب الجزائري وما إلى ذلك من المساعدات. وبعد تقهقر المقاومة بكيفية لا عودة فيها بتحقيق الانتصارات اضطر الأمير إلى اللجوء مرتين إلى المغرب قبل معركة إيسلي وذلك خلال سنة 1843/1842م، إضافة إلى وجود عدد كبير من المغاربة بزعامة السيد مُحَمَّد بن عبد الرحمان نجل الملك كانوا يلحون في أن يتحمل المغرب مسؤولياته علنية إلى جانب المقاومة الجزائرية، وهذا رغم احتجاجاتٍ وإنذاراتٍ من السلطة الفرنسية التي لم تكن تتلقى إلا ردودا غير مقنعة من المخزن[1].

وهكذا فتح المغرب جبهة مع الاحتلال الفرنسي، نتجت عنها مواجهة عسكرية حاسمة في موقعة إيسلي الشهيرة قرب مدينة وجدة الحدودية عام 1844م هزم فيها المغرب هزيمة ساحقة، ونتيجة لذلك وقّع المغرب مع فرنسا اتفاق طنجة يوم 10سبتمبر 1844م الموافق ل 26 شعبان 1260هـ الذي فرض على المغرب شروطا مذلة من جملتها تحديد عدد جنود المغاربة الموجودين على الحدود في وجدة، واعتبار الأمير عبد القادر شخصا خارجا عن القانون، وإلزام الدولة المغربية بالقبض عليه وتسليمه للفرنسيين، وأيضا فرض معاهدات تجارية مجحفة في حق المغرب[2]. وأمام هذا الاصطدام المروع للتفوق الأوروبي شرع المغرب من طرف حكامه ونخبه في التساؤل حول أسباب هذا الانهزام ومكامن قوة هذا العدو القريب.

[1] إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 3، الدار البيضاء- المغرب، دار الرشاد الحديثة، ط 2، 1415هـ- 1994م، ص ص 195- 198.

[2] محمود حيدر، المرجع السابق، ص124.

المبحث الثالث: التعريف بالرحلة.

جاءت رحلة مُحَمَّد بن عبد الله الصفار إلى فرنسا في مناخ خانق ومتوتر، وحقبة صعبة من تاريخ المغرب الحديث، تميّزت بانبهار السلطة المركزية للدولة وتزايد التحرشات الأوروبية في الجوار والأزمات الاقتصادية المتوالية فقد كانت بعد أشهر قليلة من واقعة إيسلي[1].

تعد رحلة الصفار إلى فرنسا من أوائل الرحلات السفارية المخزنية إلى أوروبا وأهمها، كونها جاءت في إطار رسمي وسياسي بأمر من السلطان المغربي المولى عبد الرحمان الذي قرر توجيه عامله عبد القادر أشعاش إلى فرنسا في مهمة سياسية تتعلق بالتفاوض مع فرنسا حول الحدود والأزمة التي أثيرت مع باريس بسبب المقاومة الجزائرية التي كان يقودها الأمير عبد القادر انطلاقا من التراب المغربي، فطلب منه أن يختار عالما يقيم أمر الدين من صلاة وقراءة وكتابة ليرافق هذه البعثة الدبلوماسية فاختار الصفار لتلك المهمة[2]. وعليه تدخل هذه الرحلة في إطار التحضير لإقامة علاقات رسمية بين المغرب وفرنسا، فقد تردد المغرب كثيرا في البداية لكن الاستعمار الفرنسي دفع في الأخير المسؤولين المغاربة إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع هذا البلد[3].

انطلقت الرحلة في غضون الأسبوع الأول من شهر ديسمبر 1845م، حيث حلت بطنجة الباخرة التي تقرر ركوب أعضاء البعثة السفارية المغربية المتوجهة إلى فرنسا على متنها، وكان ذلك المركب يحمل اسم "ميتور"[4]، دامت هذه الرحلة خمسين يوما في فرنسا، وبعد عودت الصفار إلى تطوان انهمك في كتابة نصها وبعد إنهائها قدّم نسخة إلى السلطان المغربي، وبقيت في الخزانة الحسينية قرابة قرن وربع من الزمن "120 عاما"[5].

كان أولَ من حقق هذه الرحلة الباحثة الأمريكية "سوزان ميلار" ويعود الفضل في ذلك إلى الأستاذ الفقيه مُحَمَّد المنوني في إرشادها وتنبيهها إلى وجود نسخة فرنسية من رحلة الصفار إلى فرنسا ضمن محفوظات الخزانة الحسينية بالرباط، وعليه لم تتردد الباحثة سوزان ميلار في اختيار مخطوطة الصفار موضوعا لأطروحتها التي نالت بها درجة الدكتوراه من شعبة التاريخ بجامعة ميشغن الأمريكية سنة 1976م، غير أنها احتفظت بعملها مرقونا على

---

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 120.

[2] المرجع نفسه، ص ص 120-121.

[3] Jaouad Rouchdi, Le dialogue des cultures à travers Voyage à Paris de Mohammed Assaffar Ben Abdellah Al Andalousi Attitouani, Aleph. Médias, langues & sociétés, vol N°3, 2015, p 106.

[4] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 47.

[5] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 121.

أحد رفوف مكتبتها مدة قاربت عقدين من الزمن ولم يكتب له أن ينشر إلا في سنة 1992م بعد أن حققتها وقدمتها''سوزان ميلار'' وعرَّبها وشارك في تحقيقها الدكتور ''خالد بن الصغير'' المغربي وذلك تحت العنوان التالي:[1]

Disorienting encounters: travels of a moroccan scholar in France in 1845-1846. The voyage of muhammad as-saffar translated and edited by susan glison millar: university of californai press 1992.

كُتب المخطوط بخط مغربي متأنٍ جُله واضح المعالم، يتكون في مجموعه من مائة وتسع وثلاثين صفحة (139 صفحة)، يبلغ طول كل منها 21.5 سنتيميترا وعرضها 17 سنتيمترا، ويتضمن نص كل صفحة واحد وعشرين سطرا. متبعا في كتابته منهجية الطهطاوي شكلا ومضمونا، لكن دون أن يكون مجرد مقلد له، إذ تمكن الصفار بفضل اتساع آفاقه الأدبية من إثراء مؤلفه بأشياء أصلية كمقتبسات من القرآن الكريم والحديث والأبيات الشعرية والأقوال المأثورة والأمثال والنوادر وغيرها من المؤشرات الدالة على مكانته العلمية والأدبية، وعليه فإنَّ رحلة الصفار تجمع بين خصوصيات أدب الرحلة في شكلها الكلاسيكي وعناصر جديدة أكثر حداثة[2].

ينقسم المخطوط في مجموعه إلى ستة أقسام بدأها المؤلف بتوطئة وأنهاها بخاتمة، وتتوسطها أربعة فصول أساسية تتناول مواضيعاً مختلفة[3].عنون الفصل الأول منها " في سفرنا في البر من مرسيلية لباريز " تكون من 36 صفحة، والفصل الثاني جاء بعنوان" في ذكر مدينة باريز " يتكون من 37 صفحة، أما الفصل الثالث فكان عنوانه" في عوائدهم في المأكل " تكون من 09 صفحات، والفصل الرابع والأخير عنونه ب" في ذكر مكثنا في هذه المدينة " جاء في 41 صفحة.

أما فيما يتعلق بحركة السرد والوصف فهي تكاد تكون منتظمة، حيث بذل الصفار قصارى جهده لنقل كل ما يرى حوله بدقة وإخلاص، ومن خلال تجواله بين الثقافتين الشرقية والغربية تتم المقارنة بين جوهر الاختلاف، وهكذا يتم إقامة حوار حقيقي بين هذه الثقافات، ونظرا لحقيقة أنَّ منظور الكاتب يعتمد على الثقافة المغربية وخاصة الثقافة الدينية فإنَّ مجاز لقائه مع فرنسا ينشر صورا ثقافية غنية ورائعة، إذ يجد الكاتب نفسه في

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 17- 18.
[2] المرجع نفسه.
[3] المرجع نفسه، ص17.

الكثير من الأحيان منجذبا إلى جمال مدينة باريس وشوارعها وحدائقها وجسورها وأضوائها ومبانيها ونسائها وطريقة حياة سكانها[1].

المبحث الرابع: دراسة مضمون الرحلة.

إنَّ دقة الملاحظة والجودة في التعبير البادیتین بوضوح كامل من خلال صفحات الرحلة كانتا من الصفات المطلوبة في الأوساط المغربية، فما اتصف به الصفار من ذكاء ولباقة مكناه من إيجاد الطريق التي أدت به إلى فرنسا[2].

أولا: الفصل الأول توطئة.

افتتح الصفار رحلته بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أسهب في الثناء على من كان قائما على هذه الرحلة وهو السلطان المغربي المولى عبد الرحمان وعبد القادر أشعاش، فيقول في ذلك: "...**بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم... أمَّا بعد، فإنَّه لما شرح الله صدره مولانا عمدة ديننا ودنيانا، السلطان الكبير الجليل الشهير المعظم الممجد الموقر... الداعي بحسن سياسته في تنفيذ أوامره السعيدة، وتدبير مصالح رعاياه القريبة والبعيدة القائد الأمجد الرئيس الأسعد الحاج عبد القادر أشعاش...**"[3].

انضوى بعد ذلك مباشرة في عرض وقائع رحلته منذ انطلاقها من مرفأ تطوان نحو مرسيليا والتي دامت أربعة أيام، فتحدث عن صورة الاستقبال والعناية التي كان الوفد المغربي يحظى بها فقال: "...**فركبنا من البلد حتى بلغنا مرساها ...فبعد مسيرتنا أربعة أيام ونحن في أرغد عيش وأهنى مقام... ونزلنا في إعزاز وإكرام وتوقير وفرح... وعند نزولنا أطلقوا المدافع حتى ملأ خبر وصولنا من الأقصى والأدنى المسامع فدخلنا البلد فتلقونا بالبشر والألطاف....**"[4].

---

[1] Jaouad Rouchdi, Op.cit, p 107.

[2] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 80- 81.

[3] المرجع نفسه، ص ص 111- 114.

[4] المرجع نفسه، ص ص 115- 125.

ثانيا: الفصل الثاني فصل في سفرنا في البر من مرسيلية لباريز.

أولى الصفار في هذا الفصل اهتماما واسعا لكل ما هو من معالم الحضارة الأوربية الحديثة (فرنسا) المادية مثل وسائل النقل الحديثة والتقنيات العسكرية الجديدة، والرمزية مثل المسرح والفنون ووسائل الترفيه الجديدة، فهو في كل ذلك يحاول أن يعرض نموذجا في مرآة الآخر مدركا حجم النقص في النموذج المغربي[1].

إنَّ أول ما جذب الصفار في هذه الرحلة هو قانون السفر المختلف تماما عمَّا تعود عليه في بلاده المغرب"...**اعلم أنَّ قانون السفر في هذا البلد، أنَّ المسافر لا يحمل معه زادا ولا فراشا ولا خزانة ولا غير ذلك، وإنَّما يحتفظ بدراهمه ورياله وذهبه، فبذلك يبلغ المنى من كل آماله وبلوغ أربه... "**[2] لينتقل بعدها إلى سرد مشاهداته وملاحظاته حول هذه المدينة الجديدة مرسيليا.

بدأ بعدها الصفار بالحديث عن عمران مرسيليا وشوارعها وأسواقها التي يباع فيها ما يحتاجه المسافر، والأوكنضة التي يعني بها فندق صغير يتوفر على مطعم للأكل وعلى عدد قليل من غرف الإيواء، ثمَّ أطنب في وصف التفاصيل الصغيرة والكبيرة المتعلقة بهذه بالفنادق وكيفية خدمة الغرف، ما يدل على الانبهار الشديد للكاتب منذ البداية " **وفيها دار أو ديار تسمى عندهم الأوكنضة... وهي دار كبيرة ذات بيوت كثيرة في فوقيها... وكل بيت فيه فراش واحد أو أكثر للنوم بغطائه... وكل طاقات عليها ستور من الحرير... وفيه خزانة من العود الجيِّد ومراءات كبيرة... وفي غالب البيوت تصاوير وتماثيل من البلدان... ومن لازم كل بيت كانون... وفي تلك الدار خدمة كثيرون... وقشينة للطبخ..."**[3].

ومن قانون السفر أيضا في هذه البلاد أنَّ المسافر إليهم لا يركب ظهور الدواب وإنما يخصص له عربات ذات أربع عجلات تجرها الخيول، وفي سياق حديثه عن هذه العربات أدرج الصفار وصفا عن شكلها وأنواعها وحتى طريقة الركوب فيها حيث قال: "...**ومن قانون السفر في هذه البلاد، أنَّ المسافرين لا يركبون ظهور الدواب بسرج ولا بردعة ولا غير ذلك...وإنما السفر هنا في الأكداش والكراريص والخيل تجرها، وهي على أشكال وأنواع فمنها شكل مربع يسع أربعة من الناس... ومنها شكل مستطيل يسع عددا كثير من الناس...**

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 127.
[2] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 127.
[3] المرجع نفسه، ص ص 127- 130.

ومنها أشكال أخرى لحمل السلع والأثقال... ومنها ما هو معد لحمل ما ثقل من حجارة وحديد ونحو ذلك ويجره الكثير من الخيل المربوط بعضها في بعض..."[1].

وما شد انتباهه وأثار اهتمامه أيضا هو اعتناء الفرنسيين بعلم جر الأثقال الذي يسعون من خلاله إلى حماية طرقهم من الخراب، ما جعلهم يجعلون في كل البلدان موازين يزنون بها أثقال ما في الكراريص فهذا يسهل لهم في نفس الوقت تسطيح الطرق وإصلاحها "...**ومن جملة علومهم التي يتعاطونها علم جر الأثقال، ولهم فيه تآليف... الذي سهل لهم ذلك تسطيح الطرق وإصلاحها وتعاهدها... ومن اعتنائهم بها أيضا أنهم جعلوا في كل البلدان أو جلها موازين يزنون بها أثقال ما في الكراريص... ولهم وكلاء ونقباء على الطريق بخصوصها يتعاهدون إصلاحها ويقومون به ولا شغل لهم إلا ذلك"**[2].

ومما تحدث عنه أيضا في هذا الفصل كفاءة الحكام ونجاحهم في ضمان أمن الطرقات وسلامة المتنقلين عبر أرجاء البلاد، فالمسافر إلى هذا البلد لا يخشى من لصٍ ولا قاطع طريق ولا معترض، ما يجعل الانسان يمشي بها في كل وقت من ليلٍ ونهارٍ[3].

ثم نقل الصفار مشاهداته وإعجابه الشديد بما رأى في طريقه من مرسيليا إلى ليون من مدن وقرى وأراضٍ زراعية وجبال ومدى اعتناء أهلها وحكامها بها "...**ومدى معرفتهم بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم واتقان تدبيرهم ...فهم جادون كل جد في عمارة الأرض والغرس وغيره، ولا يسلكون في ذلك طريق التساهل... فلا ترى عندهم شيئا من الأرض ضائعا أصلا ولا ترى عندهم خرابا ولا أرضا مواتا..."**[4]. أطنب هنا الصفار في ذكر جزيئات ما يتعلق بالأرض ودقائقها من كيفية زراعة الأشجار والاعتناء بها وكذا الأودية والأنهار وذلك لعلمه بمدى أهمية هذا الأمر وانعكاساته الإيجابية على البلاد والعباد[5] خاصة وأن الصفار لم يعتاد على رؤية هذه المناظر الطبيعية خاصة نهر السين الذي يعبر باريس، أما جسورها فهو مفتونٌ بها حيث تجسد ذلك في عدة أوصاف وصفها بها ما جعله يطيل في ذكر تفاصيلها مع التركيز أولا على جمالها المعماري الراقي[6].

---

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 130- 133.

[2] المرجع نفسه، ص ص 132- 133- 135.

[3] المرجع نفسه، ص 135.

[4] المرجع نفسه، ص 137.

[5] المرجع نفسه، ص ص 137- 144.

[6] Jaouad Rouchdi, Op.cit, p111.

إن رحلة الصفار إلى باريس سبقتها عدة معابر للمدن الفرنسية (إكس، فلنص، أفنيون وليون) وفي كل مدينة من هذه المدن يكتشف الصفار شيئا آخر نظرا للاختلافات الثقافية الكبيرة التي تنشأ أمام عينه، وأول هذه الاختلافات كان في مدينة إكس التابعة لمرسيليا والتي مست الجانب الديني[1] مبينا موقفه الصريح من ديانة أهلها الذين يعبدون صليبا عليه صورة رجل مصلوب مجرد من ثيابه زعما منهم أنه النبي عيسى عليه السلام. هنا يبدو أن نظرة الصفار إلى ديانة أهل هاته البلدة تنبئ عن عدم معرفته بالبلدان التي يزورها، لكن سرعان ما يتدارك الأمر فيما بعد فيبدي عن حافظته القرآنية والفقهية فيسرد ما جاء به القسطلاني في شرح الأمر حامدا الله على نعمة الإسلام[2]. ثم أفرد الصفار بعدها صفحات عديدة للكلام عن (بابور النار وطريق الحديد) فأبسط خلالها القول فيما يخص القطار وسيره ووقوفه في المحطات التي يمر بها، فقد أقله إلى باريز[3].

ومواصلة في ذكره للمدن التي مر بها وصل الصفار إلى باريز بعد مدة خمسة عشر يوما من خروجه من تطوان، فوصف بداية مدينة طولون المحصنة التي تعتبر مأوى للعساكر البحرية ومرسى السفن الحربية فدام فيها يوما كاملا، شاهد خلاله استعراضا عسكريا حضره على متن مركبٍ في البحر، فوقف هنا على الفجوة الواسعة بين المغرب وفرنسا من خلال رصده وتسجيله لتقنيات الحروب الحديثة والمعدات العسكرية الجديدة، وهي الفجوة التي تفسر له الهزيمة التي ألحقتها فرنسا بالمملكة الشريفة في موقعة إيسلي والاتفاقية المذلة التي فرضت عليه عقبها، فهذه التقنيات العسكرية أصبحت تعفي الانسان من بذل مجهودات بدنية وصارت توفر تنظيما أكبر لجهود الحرب[4] ما جعل الصفار يشعر بحالة التأخر التي ينتمي إليها في مقابل واقع التقدم الذي شاهده ما دفعه على الإقرار بأن القوم في هذه البلاد قد بلغوا من التفوق ما لم يبلغه المغرب[5].

ومن الأمور التي وقف عليها أيضا وهالته بشكل كبير واستولت عليه هي تقنية تحلية ماء البحر، فقد قدم وصفا دقيقا لتلك التقنية مرفوقة بالشروحات التي قُدمت له من طرف الخبير الفرنسي حيث يقول: "...**فسألنا عن ذلك رئيسه، فأخبرنا بما مضمونه أنهم يقطرون الماء حتى ترتفع ملوحته للأعلى ويبقى الأسفل حلوا، أو**

---

[1] Jaouad Rouchdi, Op.cit, p 110.

[2] فريد الزاهي، الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، مجلة فصيلة المحكمة، العدد 2، 2013، ص ص 180- 184.

[3] سعيد بنسعيد العلوي، الهجرة إلى الغرب: فرنسا في عيون الرحالة المغاربة، ص134.

[4] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 130.

[5] سعيد بنسعيد العلوي، المرجع السابق، ص 140.

بالعكس... وذكر لنا في طيّ ذلك تشبيها، وهو أن ماء المطر يرتفع من البحر وتذهب ملوحته بِحر الشمس فكذلك هذا، وحرارة النار تقوم مقام حرارة الشمس، هذا ما ذكر لنا ولم يبلغنا بحقيقة الكيفية، وجرب ففي التجريب علم الحقائق..."[1]، وكأن الصفار هنا يقول بأن الفرنسيين أدركوا الغاية من قدومهم فلم يظهروا لهم حقيقة المخترعات كاملة مفصلة وإنما أظهروا لهم البعض منها فقط.

أنهى فصله هذا بذكر الله عز وجل بقوله: "...**وبالله سبحانه التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.**"[2].

ثالثا: الفصل الثالث فصل في ذكر مدينة باريز.

من خلال عنوان هذا الفصل يفهم أنَّ الكاتب خصصه للحديث عن مدينة باريز دون غيرها، وكل ما يتعلق بها وبأحوالها وعوائد أهلها وأمورهم، حيث شبهها بالقسطنطنية العظمى للمسلمين فهي قاعدة بلاد فرنسا ومسكن عظمائهم ومنشأ قوانينهم ودار علومهم بها يتفاخرون وفي سكناها يتنافسون[3].

ذكر الصفار في هذا الفصل كل جزيئة تخص هذه المدينة وما يتعلق بها في مختلف الجوانب، فتطرق مثلا لذكر موقعها الفلكي وتساءل عن ذلك فكتب أنها تقع بالتقريب في التاسعة وأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي، ووضح أن هذا الموقع هو ما يجعلها كثيرة البرد، ثم انتقل للحديث عن مدى اكتظاظ هذه المدينة بالسكان وكيف أنهم يهتمون بتسجيل عدد المواليد والوفيات فهم يجعلون رجلا يهتم بهذه المهمة على الدوام[4]. هنا أورد الصفار ذكر عدد سكان باريس خلال مقامه بها والذي بلغ (المليون نسمة) بينما لا وجود للإحصاء أنذاك لسكان الحواضر في المغرب[5].

بعد هذا التقديم الجميل لمدينة باريز بدأ في وصف تفاصيلها بداية من الخارج من خلال وصفه للسور الحصين الذي يحيط بها والذي وضع من أجل أن تكون لباريز واجهة ممتعة بالتحصينات المتينة وكذا من أجل

---

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 128.

[2] المرجع نفسه، ص 162.

[3] المرجع نفسه، ص 163.

[4] المرجع نفسه، ص ص 163- 164.

[5] مصطفى غطيس، باريز وباريزيون في رحلة الصفار (1845- 1846م)، مجلة كان التاريخية، العدد 41، 2018م، ص 208.

المكوس التي تؤخذ ممن يدخلها أو يخرج منها[1]، وهنا أمعن الصفار في وصفه لتحصين هذه المدينة لما له من أهمية كبيرة تصب كلها في حماية البلاد من أي خطر خارجي.

تناول بعد ذلك الحديث عن نهر السين وما يحتوي عليه من قناطر على اختلاف أشكالها إضافة إلى ذكره للجزيرة التي تتوسط هذا النهر المسماة عندهم بباريز القديمة، ثم انتقل للحديث عن أشهر أسواقها وعالم الحيوانات الذي اجتمعت فيه أنواع الحيوانات حية وميتة، وكيف أنهم جعلوا للميتة حِيَلا حتى صارت وكأنها حية وهي ميتة كالأسماك والفيلة وما إلى ذلك من أنواع الحيوانات الأخرى، كما لم ينس الحديث أيضا عن منازلهم ومتنزهاتهم[2] فنقل طريقة تنزه الباريزيين ومدى اختلافها عن طريقة تنزه المغاربة الذين افتقروا أنذاك إلى متنزهات كتلك الموجودة في العاصمة الفرنسية[3].

أدرج الصفار ضمن هذا الفصل عنوانا تحت اسم" التياترو" الذي يقصد به محل لاستعراض مجمل أنواع الفنون كالمسرح والكوميديا والأوبيرا، ذات الأهداف المختلفة فكل منها يسعى لإيصال رسالة معينة ما جعله يطيل في ذكر كل ما يتعلق بها[4].

لقد وقف الصفار على الصحافة الفرنسية ومدى حرية الرأي والتعبير عبرها، فاعتبرها مظهرا من مظاهر الديموقراطية السياسية وعنصر توازن في الدولة بين الحاكم والرعية، إذ سجل أنَّ: " **لأهل باريز كغيرهم من سائر الفرنسيين بل وسائر الروم تشوق لما يتجدد من الأخبار ويحدث من وقائع في سائر الأقطار، فاتخذوا لذلك الكازيط، وهي ورقات يكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث والوقائع في بلدهم أو غيرها من البلدان النائية أو القريبة...**" ويعدد تلك الكوازيط وآثارها الإيجابية على سياسة التدبير[5].

وأكثر ما شد انتباهه فيما يتعلق بحرية الرأي والتعبير أنَّ الشعب الفرنسي لديه الحق في رفع اعتراضاته عن القوانين التي يطرحها أهل القمرتين المقصود بهما مجلس الشيوخ ومجلس النواب في البرلمان الفرنسي فيقول في ذلك: "**... ومن جملة قوانينهم التي أسسها لهم سلطانهم لويس الثامن عشر والتزموا اتباعها، أنه لا يمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه... ويكتبون في الكوازيط اعتراضات على أهل القمرتين فيما أبدوه من**

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 164- 165.
[2] المرجع نفسه، ص ص 167- 168- 169- 182.
[3] مصطفى غطيس، المرجع السابق، 206.
[4] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 182- 183.
[5] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 131.

القوانين، وإن جار سلطانهم فضلا عن كبير من كبرائهم أو خرج عن القانون في أمر ما يكتبونه في الكازيطا ويقولون إنه ظالم وليس على حق..."[1].

تحدث بعدها الصفار عن مدى اهتمام وحرص أهل هذه البلدة على العمل والحث عليه فلا تجد أحدا منهم بدون شغل، فهم يعطون لكل وقت ما يستحق وإن كان عندهم من الفرجات العجب العجاب لكن ذلك لا يلهيهم عن أشغالهم فلا يرضى أحد منهم أن يكون فقيراً فإنَّ الموت عندهم أهون من الفقر، واستشهد هنا على ما يحث على العمل من الدين الإسلامي فالفقر هو رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس[2]. لقد أظهر الصفار هنا بطريقة غير مباشرة إعجابه بتفكير الشعب الفرنسي في هذا الجانب. فذكر أهم مجال يشتغل فيه هؤلاء القوم وهو مجال التجارة والصنائع بمختلف أنواعها، فعلم التجارة عندهم من جملة العلوم التي تدرس وتدون ولهم فيها مكاتب ومدارس، وللنساء فيها مهارة كالرجال أو أكثر[3]. وفي ختام هذا الفصل نعت الصفار وصفا لشخص الإنسان الفرنسي وما يحمله من طباع وما يحبه، فوصفه بذكاء العقل وحدة الذهن ودقة النظر والحدة والشرارة والنظافة والخفة والطيش في نفس الوقت[4].

رابعا: الفصل الرابع فصل في عوائدهم في المأكل.

خصص هذا الفصل للحديث عن عادات الفرنسيين في المأكل وفنون طبخهم، فركز على طريقة وكيفية أكلهم وأطال في ذلك كثيرا، فباشر بالحديث عن موائدهم وكيفية تحضيرها وعن الأواني المخصصة لها وعن طريقة تقديمهم للأكل فيقول: **"ومن عاداتهم أنهم لا يباشرون الطعام باليد ولا يجتمعون على ماعون واحد، وإذا حضر وقت الأكل أتى الخدمة بطبلة من الخشب...ثم يصففون على الطبلة أواني الفواكه والحلاوات... ويجعلون لكل واحد زجاجة ماء معها كأسها ليصب فيه من الزجاجة ويشرب، فإذا وصل الوقت فيأتي الآكلون ويجلسون على شواليهم، والخدمة واقفون على رؤوسهم... ولهم في الأطعمة ترتيب معلوم فيقدمون**

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 192.
[2] المرجع نفسه، ص 193.
[3] المرجع نفسه، ص ص 195- 196.
[4] المرجع نفسه، ص ص 198- 199.

أولا أنواع المطبوخات من لحم وغيره ثم يتبعونها من أنواع المشويات من دجاج وغيره، ثم يختمون بالفواكه والحلاوات. ويبتدئون في كل نوع بما سهل هضمه وخف على المعدة حمله..."[1].

وهو الأمر الذي وجده يختلف جملة وتفصيلا عن عوائد المأكل عند المغاربة، هذا ما جعله يصرح عن عدم ارتياحه عند مجيء وقت الأكل فيقول: "...**وكان نكره مجيء وقت الأكل لطول الجلوس، ولا نفهم كلامهم، مع أنَّ كثيرا من أطعمتهم لا توافقنا، فكنا نعيا ونمل لطول المكث والجلوس...**"[2]. وإلى جانب الحديث عن مأكلهم أورد أنواع أطعمتهم من لحوم كالسمك والدجاج وغيرها وكذلك خضرواتهم وفواكههم وحلوياتهم وأشربتهم[3].

خامسا: الفصل الخامس فصل في ذكر مكثنا في هذه المدينة.

خصص هذا الفصل للحديث عن مدينة باريس وما يتعلق بها مدة إقامتهم بها بعد وصولهم إليها يوم الأحد 28 ذي الحجة 1261هـ الموافق ل28 ديسمبر 1845م حيث أقاموا بالعاصمة خمسين يوما، وغادروها يوم الإثنين 19 صفر 1262هـ الموافق ل 16 فيفري 1846م[4].

في البداية أثنى الصفار على الفرنسيين لاهتمامهم بهم وتقديرهم واحترامهم حيث قال:" ...**فكنا والحمد لله في أعينهم عظاما، ينظرون إلينا دائما بعين الاحترام والتقدير...**"[5]. ثم وصف المكان الذي هُيِّئ لهم للنزول به المسمى "الشنزيليزي"، ثم تطرق إلى الحديث عن دعوة السلطان الفرنسي للوفد المغربي فأعجب بحفاوة الاستقبال وقصر الملك" ... **ومن الغد بعث لنا سلطانهم لنأتيه...بعث لنا بأربعة أكداش... كلها مشعرة بالتعظيم ورفع المنزلة... ثم استدعونا للصعود في الدرج فصعدنا فإذا هو من القصور المشيدة ذو بناء عجيب وتزويق غريب ثم أخذنا في الدخول من صالة إلى صالة حتى انتهينا إلى الصالة التي بها السلطان وهي أعظم زخرفة وأمل بهجة بما قبلها...**"[6].لكن سرعان ما تفطن الصفار لهاته المدارات التي في حقيقتها ما هي إلا سياسة

---

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق ، ص ص 201- 203.
[2] المرجع نفسه، ص 204.
[3] المرجع نفسه، ص ص 204- 207.
[4] المرجع نفسه، ص 211.
[5] المرجع نفسه.
[6] المرجع نفسه، ص ص 213- 214.

سياسة من السياسات الفرنسية التي كانت تسعى من ورائها إلى تلميع الصورة الفرنسية في أعين المغاربة من أجل إقامة علاقات معها مستقبلا.

واصل الصفار وصفه لقصر السلطان الذي دعاهم للعشاء عنده، فأطال في ذكر تفاصيل هذه الوليمة ومن حضرها، فمن شدة تركيزه الكبير على أدق التفاصيل لم ينس حتى عدد الشموع التي وضعت على طاولة الأكل والتي بلغت ثلاثمائة وثلاثين شمعة "... **وبعد وصولنا لمحلنا قدمت علينا من عنده بطاقات يطلب منا أن نشرفه بالقدوم إليه ليلا لنتعشى عنده، فلما كان الليل ذهبنا إليه، فدخلنا تلك الصالات فألفيناها قد أوقد فيها الشموع بثريات عظيمة من البلور يخطف شعاعها البصر... فكان من جملة ما يوقد في تلك الصالة من الشموع ثلاثمائة وثلاثين شمعة...**"[1].

لقد تزامن حضور الصفار مع دخول العام الجديد عندهم 1846م الذي يعتبر عيد ميلاد النبي عيسى عليه السلام، ما جعله يتطرق للحديث عن معايدتهم للسلطان الفرنسي وكيفية احتفالهم بهذا العيد[2]، ومواصلة لهذا الوصف المتعلق بحيثيات الاحتفال تكلم أيضا عن نساء باريز اللواتي حضرن معه حفل الموسيقى والرقص في 08 محرم 1262هـ الموافق لـ6 جانفي 1846م الذي أقامه وزير الخارجية الفرنسية أنذاك على شرف عبد القادر أشعاش، وفي هذا الصدد أدرج الصفار سياقا خاصا للوصف ففكرة الجمال الأنثوي بدت أكثر من جذابة لديه خاصة إذ أخذنا في الاعتبار أنه يأتي من بيئة محافظة وأنه ذو ثقافة دينية، هذا الأمر جعله يكشف عن انجذابه تجاه المرأة الباريسية بوضوح من خلال تركيزه على عنصرين أساسيين الجمال الجسدي والأناقة[3]، كما لم يفته الحديث عن نمط موسيقاهم وغنائهم مصرحا عن عدم إعجابه بذلك قائلا: "...**والحاصل آلاتهم وغناؤهم لا يطربنا ولا يهزنا...**"[4].

أدرج الصفار ضمن هذا الفصل جملة من العناوين، فكان أول هذه العناوين دار كتبهم التي يقصد بها الخزانة الملكية التي تشكل جزءًا من الخزانة الوطنية التي تجمع فيها أنواع الكتب على اختلافها وتنوع لغاتها، وأهم ما شد انتباهه فيها هو وجود مصحف عظيم في مجلد كبير بخط مشرقي جميل، فعبر عن حسرته بوجوده في بلاد

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 215- 216.
[2] المرجع نفسه، ص ص 217- 219.
[3] Jaouad Rouchdi, Op.cit, p 112.
[4] سوزان ميلار، المرجع السابق، ص ص 220- 222.

الكفر متمنيا أن يكون في خزانة ملوك الاسلام[1]، إلى جانب وجود جملة من الكتب ذات التراث الاسلامي ككتاب الموطأ للإمام مالك[2] وكتاب شرح العيني على الجامع الصحيح الذي يحتوي على شرح لكتاب صحيح البخاري في الأحاديث النبوية، بالإضافة إلى كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون الذي ألفه الكاتب جلبي المعروف باسم حاجي خليفة[3] والذي يعتبر من كتب التراجم ذات الأهمية الكبيرة، مع حديثه أيضا عن جملة الآثار التي وجدها في هاته المكتبة كخواتم الملوك ودروعهم الحديدية التي كانوا يلبسونها في الحرب مع ذكر صاحبها فهم يحافظون على كل شيء ظفروا به ليكون عبرة لآخر الدهر ومن مثال ذلك ذكر" ...**قدح من الذهب مرتفع على ساق صغير مرصع بالجواهر والأحجار، زعموا أنه كان لهارون الرشيد أرسله لهم مكافأة على مصحف كان عندهم بعث له به سلطانهم...**"[4].

انتقل الصفار للحديث عن العرض العسكري الذي حضره بأمر من السلطان فقد دعاهم للفرجة في شان دومارس، وذلك من أجل رسم صورة فرنسا القوية في أعين البعثة المغربية، وهنا ركزت فرنسا في عرض قوتها العسكرية أمام البعثة المغربية وذلك لإدراكها التام بأهمية هذا الجانب إضافة إلى محاولتها زرع الخوف في نفوسهم والتعرف عن ردة فعلهم أيضا وذلك من خلال قوله: " ...**أمر السلطان بسرد العساكر واستدعانا للفرجة، فيها مبالغة في إكرامنا والاعتناء بنا ظاهرا، وزيادة في تبكيتنا والتنكيت علينا باطنا...**"[5].

أما العنوان الثاني الذي أدرجه في هذا الفصل خصصه للحديث عن علم دراسة الأشياء الطبيعية حيث استخدم لذلك مصطلح Physique التي عربها تحت عنوان "دار الفزك" التي كانت تسمى وقتئذٍ في باريس ب conservatoire des artes et métiers أو معهد الفنون والصنائع، والتي تعرف باسم آخر هو musée national des techniques أو المتحف الوطني للتقنيات. فركز الصفار على نقل نبذة عن إيجابيات هذا العلم وما يحتويه من خصائص وذلك نظرا لغياب اهتمام المغاربة بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق ، ص ص 225- 226.

[2] **الإمام مالك:** من فقهاء المدينة المنورة، مؤسس المذهب المالكي أحد المذاهب الأربعة، توفي في 197هـ/795م.ينظر: المرجع نفسه، ص 227.

[3] **حاجي خليفة:** من أبرز علماء العثمانيين خلال القرن السابع عشر. ينظر: سوزان ميلار، المرجع السابق، نفسه.

[4] المرجع نفسه، ص ص 227- 228.

[5] المرجع نفسه.

بهذا الجانب العلمي في تلك الفترة، فعاين الصفار إجراء تجارب في الكهرباء السكونية والضغط والموجات الصوتية والتكبير الظاهري بواسطة العدسات المكبرة[1].

ثم أفرد عنوانا ثالثا باسم " دار الإصطنبا" والتي يعني بها طبع الكتب فنظرا لكونه كاتبا وله اهتمامات أدبيه فليس من المستغرب أن يولي عنايته الكبيرة لآلة الطباعة التي اندهش بها فقد بدا ذلك في حديثة منذ البداية، حيث وصفها وذكر أنواعها ولم يكتف بالوصف فقط وإنما عزز هذه المشاهدة بنوع من التجربة، فيقول في ذلك: "...**ذهبنا لدار طبع الكتب المسماة عندهم بالإصطنبا وهي أيضا من أعاجيب الصنائع... وأعجب ما رأينا عندهم من آلة الكتابة نوع خاص يطبع لك الكتاب بأي خط شئت، عربيا أم أعجميا، مغربيا أو مشرقيا أو كيف ما شئت... وكل شيء عندهم مدون في الكتب ولا نرى عندهم مكانا خاليا من الكتب، لهم بها استيناس واستفادة ولا يتكلون على حفظهم في شيء من الأشياء خوف النسيان....كتبت بيدي سطرا بذلك المداد في ورقة، ووضعوها على الحجرة فانطبعت في الكتابة....**"[2].

ثم سار للحديث عن زيارته لموضع يسمى le panthéon الذي يعتبر من المدافن الرئيسة لكبار الشخصيات وعظمائهم في فرنسا، بالإضافة إلى زياراتهم لبعض قصورهم السلطانية خارج باريس وهما قصر سان كلود وقصر فرساي والتي شاهدو فيها تصاوير كبراء وعظماء فرنسا وسلاطينها وشجعانها ورهبانها، وكذا تصاوير الانتصارات في حروبهم، كصورة دخولهم مدينة الجزائر ومدينة قسنطينة وصورة تغلبهم على تلك النواحي كلها[3]. ما يعكس لنا مدى اهتمام وتعظيم الفرنسيين بتاريخهم خاصة الجانب القوي منه وذلك لما له من إيجابيات تنعكس على تكوين الفرد الفرنسي بترسيخ صورة فرنسا القوية في نظره وفي نظر كل من شاهد ذلك.

تحدث الصفار عن القمرة في أحد الفصول السابقة ولكن نظرا لأهميتها في النظام السياسي في الحكومة الفرنسية خصص عنوانا رابعا لها منفصلا في هذا الفصل، فوصفها وصفا دقيقا فهي الدار التي يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم والكلام في أمورهم في هذا المجلس، فقد زار القمرتين الكبيرة و الصغيرة اللتان تشكلان البرلمان الفرنسي. فتحدث عن القمرة الكبيرة وأعضائها وهم الملك ورؤساء الدولة من وزراء وقضاة وحكام، من وظائفها تحديد

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق ، ص 235.
[2] المرجع نفسه، ص ص 241- 244- 245.
[3] المرجع نفسه، ص ص 247- 248.

القانون أو الإبقاء عليه كما تحامي عن الملك ورؤساء الدولة، أما القمرة الصغيرة فأعضاؤها هم وكلاء الرعية يبعثونهم من سائر البلاد، فيحامون عن الرعية ويطالبون بحقوقهم[1].

أما العنوان الخامس خصصه الصفار للحديث عن الجانب التعليمي لهذه البلاد وذلك نظرا لأهمية السياسة التعليمية وما لها من مساهمة في رقي الأمم وازدهارها، فنقل لنا صورة عن ذلك من خلال اختيار مدرسة من مدارسهم التي من المحتمل أن تكون école polytechnique التي أسست عند اندلا ع الثورة الفرنسية، فوصف طاقمها الإداري وعدد متعلميها والمقيمين فيها ومكان إقامتهم، كما أشار إلى المنظومة التعليمية وجملة علومهم وكذا مظاهر عنايتهم بالتلاميذ، وبهذا يكون الصفار قد أنهى فصله هذا حول ما يتعلق بمدينة باريز[2].

سادسا: الفصل السادس خاتمة في بيان مداخيلهم.

خصص الصفار هذا الفصل للحديث عن وزراء الدولة الفرنسية ووظائفهم (وزير الخزنة، وزير الأمور الخارجية، وزير الأمور الداخلية، وزير محكمة الدين والشرع، وزير المدارس، وزير التجارة والصناعة ووزير البحر) وبيَّن مداخيلهم ووجوه جباياتهم ومخارجها مع ذكر بعض قوانينهم[3].

تحدث الصفار بداية عن مخارج فرنسا حيث نقل جزءًا من ميزانية فرنسا لسنة 1846م، ثم انتقل للحديث عن مداخيل هذه الدولة وفائدتها، فذكر أن لها مداخيل في عدة مجالات كالمداخيل التي تنتج مثلا عن الجباية على الأرض ومن يريد أن يفتح محلا للبيع والشراء...الخ فكثرة مال هذه الدولة يعود إلى هذه الفائدة العظيمة للجبايات وأيضا إلى مدى حرصهم على التكسب وجمع المال فلا اهتمام لهم إلا به[4]، وفي ضمن حديثه عن مداخيلهم المالية أدرج الصفار رأيه بخصوص هذه المعاملات التجارية وما ينتج عنها من أرباح وأسقطها على ما يقابلها في الدين الاسلامي مبينا حكمها من خلال قوله: "...**وغالب تجاراتهم ومكاسبهم مشحون بالربى ومن ذلك البنك التي هي من أعظم مكاسبهم...**"[5].

ختم الصفار رحلته بكلمة وجهها للسلطان المغربي معتذرا له عن تقصيره فهو يدرك حجم هذه المسؤولية الجسيمة أمام السلطان المتمثلة في إعطائه تقريرا حول هذه الرحلة الاستكشافية (السفارية) مبتعدا عن أي تحيزات،

---

[1] سوزان ميلار، المرجع السابق ، ص 235.249- 250.

[2] المرجع نفسه، ص ص 251- 252.

[3] المرجع نفسه، ص 253.

[4] المرجع نفسه، ص ص 256- 263.

[5] المرجع نفسه، ص 264.

فقد بذل فيها قصارى جهده لنقل كل ما يرى حوله بدقة وإخلاص[1]، كما اعترف بعجزه عن سلوك تلك المسالك لولا تلقيه المساعدة من الفرنسيين الذين وصفهم بأهل الضلال والكفر والإشراك داعيا الله قائلا: "...**وأسأله سبحانه الانتظام في سلك أهل الكمال وإن لم يكن لي ما لهم من صالح الأعمال، وأن يميتنا على حسن الخاتمة بجاه عين الرحمة والواسطة في كل نعمة...**"[2]

[1]Jaouad Rouchdi, Op.cit, p 107.

[2]سوزان ميلار، المرجع السابق، ص 265.

من خلال دراستنا لنص رحلة الفقيه مُحَمَّد بن عبد الله الصفار التطواني يمكن استخلاص ما يلي:

يمكن اعتبار هذه الرحلة جوابا عن أسئلة مهمة حول مكامن قوة الدولة الفرنسية، وذلك من خلال قدرة كاتبها على تسجيل الكثر من المعلومات بدقة وبعمق من خلال وصفه لكل ما هو جديد، وعليه قد ساهم في نزع الغموض عن الصورة الفرنسية في أعين المغاربة التي كانت من قبل، وعليه يمكن القول أن الصفار نجح إلى حد ما في هذه المهمة الديبلوماسية التي كلف بها.

عند قراءة نص هذه الرحلة يلاحظ لدى الكاتب كثيرا الشعور بالإعجاب والانبهار الشديد بالجانب الحضاري عند الفرنسيين بشكل عام والباريسيين بشكل خاص وذلك من خلال وقوفه على العديد من الاختلافات بين التقدم الفرنسي والتأخر المغربي، الأمر الذي جعله يدرك مدى اتساع الفجوة الحضارية بين هاذين البلدين، ويلمح بدعوة خفيفة إلى وجوب الأخذ مما عندهم بما يتوافق مع الثقافة الدينية المغربية وكأنه يدعوا المغاربة إلى ضرورة الوعي بسوء الواقع المعيشي في المغرب وتغييره، وهو الأمر الذي سما بهذه الرحلة وجعلها ذات أهمية، فقد نزل الصفار خلالها إلى أعماق الواقع المغربي وحاجياته ولم يكتف بالوصف الأجوف الذي يجعل الرحلة عديمة النفع.

نجح الصفار في أن يلخص انطباعاته عن فرنسا بأسلوب باهر وبمهارة أدبية وسردية فائقة، لكنه في الكثير من الأحيان يصل بقارئه إلى حد الملل من خلال ميله الشديد إلى التدقيق في ذكر كل ما يشاهد.

اعتمد مُحَمَّد الصفار على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذا أقوال العلماء والحكم، إذ نجد في كتابته الحضور القوي للفقيه والعالم فعند اصطدامه مع ما يتعارض مع أمور الدين أو ما يتوافق معها يدرج ما يتناسب معها من الأحكام الشرعية، فعندما تحدث مثلا عن تجارتهم ومكاسبهم قال أنها مشحونة بالربى، وحينما تحدث عن مدى حرص أهل فرنسا على العمل أدرج ما يناسبه من الحث على العمل في الدين الإسلامي من أقوال العلماء والحكم فمن ذلك ذكره لحكمة من حكم النبي لقمان عليه السلام لابنه.

لم يترك الصفار شيئا يفوته من جوانب الحياة الفرنسية وخاصة الباريسية، فقد نقل كل ما يتعلق بالجانب السياسي كحديثه عن دور البرلمان الفرنسي (أهل القمرتين) وما له من أهمية في تسيير شؤون البلاد وتنظيم قوانينها، والجانب العسكري وما يتعلق به من قوة في التنظيم والعتاد، والجانب التعليمي ومدى اهتمامهم وعنايتهم بالعلوم والمدارس والمكتبات، والجانب الاقتصادي والمالي الذي ركز عليه كثيرا من خلال ذكره مدى اهتمامهم بمختلف النشاطات الاقتصادية فمن ذلك عنايتهم بالأرض والزراعة والتجارة وما يتعلق بها من أرباح التي تنتج عن

مختلف الضرائب، وأيضا الصناعة وما يتعلق بها من إنتاجات، مدعما حديثه هذا بإحصائيات تتعلق بمصاريف ومداخيل هذا البلد.

لم ينس الصفار الحديث عن الجانب الاجتماعي الذي يعتبر اللبنة الأساسية في هذا التطور، فقد نقل يوميات الشخص الفرنسي وعاداته وطبائعه وكل ما يتعلق به من مأكل ومشرب ونظافة وعمل وطرق التنزه وكذا ثقافته.

لقد سلط الصفار الضوء على المرأة الباريسية فانفصل عن شخصية الفقيه التي طالما رافقته في حديثه عن الجوانب الفرنسية الأخرى، فنجده شديد الإعجاب بهذه المرأة ومفتوناً ومتغزلاً بها.

تحلى الصفار أثناء نقله لمشاهداته بالموضوعية التامة، فقد نقل كل ما رأى وشاهد بالتفصيل والسرد، مجيبا عن التساؤلات المتكررة حول هذه الحضارة مبدياً رأيه الصريح فيما يتعلق بها.

ومما سبق ذكره يمكن القول أن هذه الرحلة تعتبر النافذة التي فتحت المجال للسلطان المغربي وللمغاربة على العموم للتعرف على نقاط ضعفهم من خلال الوقوف على نقاط قوة الدولة الفرنسية التي أصبحت جارة لها.

الفصل الثالث

فرنسا في عيون أحمد ولد قادي من خلال رحلته

المبحث الأول: ترجمة أحمد ولد قادي.

المبحث الثاني: مظاهر ولاء أحمد ولد قادي لفرنسا.

المبحث الثالث: التعريف بالرِّحلة

المبحث الرابع: دراسة مضمون الرِّحلة.

اتَّسعت مجالات الرحلة بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م، فقد شرعت الإدارة الفرنسية في تنظيم رحلات خاصة للجزائريين بالخصوص إلى فرنسا وذلك تحت نفقتها من أجل التَّأثير والإبهار في خدمة الدعاية والإشهار للمحتلين الذين اصطدمت حضارتهم الغازية بحضارةٍ مُقاومةٍ بعنصُري اللُّغة والدين، فانتهجوا الرحلة التي خدمت الاستعمار الأوروبي من ضمن خطط الاحتلال وصولاً إلى إقناع المواطن الجزائري بأنَّ خيره مرهونٌ بالتَّمكين لفرنسا في الجزائر بجيوشها وإدارتها والتعاون معها لبسط سيطرتها، وفي هذا الإطار تمت رحلة أحمد ولد قادي ممثل المنطقة الغربية من الوطن "وهران" التي اتَّجه فيها من الجزائر إلى باريس بعد حوالي 48سنة من الاحتلال[1].

المبحث الأول: ترجمة أحمد ولد قادي.

يرد اسم أحمد ولد قادي بصيغ مختلفة "**كولد قادي**" أحيانا، أو "**ابن القاضي**" أحيانا أخرى، أمَّا بالفرنسية فيكتب" **OULD CADI، OULD KADI، OULD QADI** " وهذه الصيغة الأخيرة هي التي اعتمدت في ترجمة كتاب الدوابر والزمالة في نسخته الفرنسية[2]، حظيت هذه الشخصية باهتمام كبير عند الدوابر والزمالة وأيضا عند الفرنسيين فهو أحد القيادات المحلية التي ساهمت في خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي بالجزائر وعليه لم يكن شخصية ثانوية، أمَّا المعلومات التي كانت بشأنه فهي ذاتها على صفحات المصادر والكتب البيوغرافية المحلية بحكم أنه لم يكن رمزاً دينياً أو سياسياً[3]، فهي تنحصر تقريباً في كونه ينتمي لمنطقة الجنوب الوهراني التي تعتبر موطناً لعدة قبائل وعشائر ذات نفوذ ديني وسياسي[4]، والتي من بينها نجد عشائر المخزن "**تعرف بالدوابر والزمالة**" [5]التي تعودت على تقديم خدمات للحكام كما حدث مع

---

[1] عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د. ط، 1995م، ص16.

[2] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، الدوابر والزمالة وحركاتهم، الجزائر، الجلفة، فهرنهايت للنَّشر والتَّوزيع، د. ط، 2023م، ص09.

[3] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 364.

[4] مُحَمَّد أوجرتني، المرجع السابق، ص 608.

[5] **الدوابر والزمالة**: الدوابر لفظة مشتقة من الإحاطة أي الذين يحيطون ب....، أما الزمالة فتعني التخييم فيقال مزملين أي مخيمين في مكان ما، تعتبر من أقوى القبائل المخزنية في إقليم الغرب. ينظر: كمال بن صحراوي، معجم المقاومة الجزائرية، الجزائر– قسنطينة، ألفادوك للنشر والتوزيع، د. ط، 2020م، ص 89.

الأتراك[1]،لتقوم بنفس الدَّور مع فرنسا التي ارتبطت بها في **اتفاق الكرمة[2] سنة 1835م[3]**. وبذلك خرجت عن المقاومة فتقرب لهم الاستعمار بإغرائهم بالمناصب والأوسمة[4]، ومن عشائر المخزن هذه نجد أولاد قادي التي تعتبر أهم بطن من أسرة **البحايثية[5]** التي تعود في أصولها إلى قبيلة المحال التي عاشت في المنطقة الواقعة بين مليانة ومستغانم[6] ثم استقروا فيما بعد بصفة نهائية في واد المينا[7] ضواحي تيارت وغليزان.

عرفت هذه العائلة بثرائها الواسع في المنطقة الوهرانية بما امتلكته من أراضي ورؤوس المواشي وأموال الإحسانات التي كانت تتلقاها[8]، فقد كان جدهم الموفق ابن البشير قائداً على الدوائر والزمالة زمن الأتراك[9] ولما مات خلفه ابنه قادي الذي خلَّف أربعة أولاد ذكور من بينهم مُحَمَّد الصغير الذي كان قائداً على الدوائر بدولة الأتراك والأمير، خلَّف هذا الأخير أربعة أولاد ذكور أولهم السيد أحمد[10] وعليه فهو أحمد ولد مُحَمَّد ولد قادي، أمَّا أمه فهي ملكة بنت الحاج بن سليمان أو ملحة بنت سليمان، و المرجحُ في تاريخ ميلاده أنه ولد عام 1805م[11]، أمَّا زوجته واحدة وهي فاطمة بنت الجيلالي فريول وتسمى الشريفة [12]خلَّف منها تسعة أولاد، بنت

---

[1]العربي بوعناني، المقاومة الشعبية في منطقة تيارت ومواقف الزعامات القبلية والدينية من الاستعمار الفرنسي 1830- 1908م، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، الجزائر، نوفمبر 2022م، ص 162.

[2]**إتفاق الكرمة1835م**: سميَ نسبة إلى الكرمة وهي قرية تقع جنوب وهران. وهو اتفاق بين القائد الفرنسي تريزيل وقائد الدوائر مصطفى بن اسماعيل في 16 جوان 1835م، وبموجبه صارت قبائل الدوائر والزمالة تحت حماية الفرنسيين وأصبحوا في المقابل يشاركون في الدفاع عن الاحتلال. ينظر:

كمال بن صحراوي، معجم المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 142- 167.

[3]أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 7، ص 474.

[4]عبد الحميد عومري، المرجع السابق، ص 201.

[5]**البحايثية**: هم من نسب البشير البحثاوي الباحث الثالث، بن أحمد نَجدُ الملقب بحث الباحث الثاني، بن أحمد الباحث الأول بن عودة، وهم من أصول أولاد مسعود من قبيلة سويد بلا خلاف ينظر:

بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج 2، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، د. ط، 2009م، ص 277.

[6]كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 09.

[7]عبد الحميد عومري، المرجع السابق، ص 201.

[8]مُحَمَّد أوجرتني، المرجع السابق، ص 616.

[9]كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 09.

[10]بن عودة المزاري، المرجع السابق، ج 2، ص 314.

[11]كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص10.

[12]المرجع نفسه، ص 13.

واحدة وهي فاطمة حسب شهادة جوقة الشرف[1] وثمانية ذكور وهم **بلحضري، مُحَمَّد، آمُحَمَّد، الزبير، بومدين، علي، عبد القادر و مُحَمَّد الصغير**.

كان ولد قادي حافظاً للقرآن موصوفاً بالفهم الثاقب. جلس كأعيان بني عمه على موائد الملاك وأكابر الدولة وكان ذا مال جزيل[2] فهو ينتمي إلى أسرة من طبقة الأجواد أو الأرستقراطية "العربية الناشئة" كما يسميهم الفرنسيون[3] والتي برزت كأسرة قوية تمتلك القيادة والقوة والعدد[4] حيث عُرف بعض أفراد أسرته بالعمل إلى جانب جانب الإدارة الاستعمارية فتقلدوا عدَّة مناصب، فنجد منهم مثلا عمه **مصطفى بن اسماعيل** الذي عيّن على رأس مخزن وهران وأنشأ أول كتيبة (للقومية) لتحارب مع الفرنسيين ضد المقاومين الجزائريين خاصة الأمير عبد القادر الذي كان يعتبره عدوا له رغم رفضه لتولي الإمارة التي عُرضت عليه من طرف الشيخ محيي الدين قبل أن تؤول لابنه عبد القادر، وبهذا لعب دوراً كبيراً في إضعاف المقاومة بتحالفه مع فرنسا بعد الاحتلال وبقيَ مسانداً لها حتى وفاته في 23 ماي 1843. وبعد وفاته لم تهتز كثيرا مكانة أولاد قادي فقد تولى قيادة المخزن بعده إسماعيل ولد قادي ثمَّ آلت القيادة من بعده لأخيه أحمد ولد قادي الذي يعتبر من النخبة المخزنية المتنفذة[5].

وهو صاحب كتاب **الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية** الذي نشر بالعربية ثمَّ ترجم إلى الفرنسية عام 1878م بالإضافة إلى كتاب **الدوابر والزمالة وحركاتهم** الذي طبع سنة 1883م والذي لا يعرف عدد نسخه التي صدرت ثم نفذت كلَّها حتى صار الكتاب كأنه في عداد التآليف المفقودة[6].

توفيَ أحمد ولد قادي في 08 جانفي 1885م بعد مرضه لفترة قصيرة في وقتٍ كان تعزيز هدوء الجنوب هو همه الدائم فقد عمل بكل قوته لمساعدة الحكومة في تحقيق هذه النتيجة[7]، أبّنته أغلب الصحف الفرنسية الصادرة بالجزائر وخاصة منها جريدة صدى الجزائر، كما حضر جنازته جنرالات وضباط سامون بعمالة وهران وكذا حضر

[1] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 13.
[2] بن عودة المزاري، المرجع السابق، ج 2 ، ص 314.
[3] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 7، ص 474.
[4] مُحَمَّد أوجرتني، المرجع السابق، ص 614 .
[5] المرجع نفسه، ص 616.
[6] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 04.
[7] Narcisse Foucon, Op.cit, P 504.

ممثل عن الوالي العام بالجزائر وخُتمت تأبينيته بالعبارات التالية: **"سي أحمد ولد قادي كان أحد الجزائريين الأهالي الذين أدوا أكثر من مهمة للقضية الفرنسية بالجزائر"**[1].

المبحث الثاني: مظاهر ولاء أحمد ولد قادي لفرنسا.

وظف الاستعمار العديد من العائلات لخدمة مصالحه متخذاً إيَّاهم كأداة لضرب المقاومة وتمزيقها، ومن بين هذه العائلات عائلة ولد قادي التي ينحدر منها أحمد ولد قادي الذي تعب من أجل أن ترتاح فرنسا[2] فشرع مبكراً في خدمة الفرنسيين وتدرج في الوظائف فصار ذا شأن يذكر اسمه في المجالس وتَرِد أخباره في الصحف والكتب وتخصص له الأوسمة والنياشين تقديراً لجهوده العظمى[3].

مع سنة 1835م بدأ ولد قادي سلسلة الخدمات التي قدمها للجيش الفرنسي وذلك بإيصال رسالة من الماريشال كلوزيل[4] لعمه مصطفى بن اسماعيل الذي كان محتجزاً في سجن تلمسان، ثم شهد معركة "غيز" التي خاضها إلى جانب الجنرال أرلانجيس أمام الأمير عبد القادر في سهل غوسل[5] والتي تمكن فيها الأمير من محاصرة الفيلق الفرنسي بعد تتبعه إلى "رشقون" لمدة شهرين كاملين، وقام بمهاجمة مخيمات الدوابر حلفاء فرنسا بغارةٍ ضخمة فقَد فيها أحمد ولد قادي كل ثروته والتي على إثرها كتب إليه الأمير يدعوه إلى الانضمام إليه مقابل إعادة جميع أملاكه[6]، فكان رده الرفض والتمسك بالولاء لفرنسا ففي معركة "سكاك" التي خاضها الماريشال بيجو بعد نزوله بفرنسا في رشقون واصل ولد قادي دحره لمقاومة الأمير ومطاردتها من مكان لآخر مع تقديم النصيحة

---

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 366.

[2] العربي بو عناني، المرجع السابق، ص 165.

[3] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 25.

[4] **الماريشال كلوزيل:** برتران كونت كلوزيل، ولد يوم 12ديسمبر 1772م وتوفيَّ يوم 21 أفريل 1842م، تولى عدة وظائف في الجيش والسفارة الفرنسية في إسبانيا، خلف ديبورمون في الجزائر وأنشأ جيش الزواف في أول أكتوبر 1830م، احتل البليدة وتوسع حتى المدية وكان وراء المشروع التونسي بوهران وقسنطينة. كانت هزيمته أمام الأمير عبد القادر في حرب المقطع سبباً في عزله في 5 فيفري 1831م، لكن تم تعيينه مرة ثانية حاكماً عاماً في الجزائر ابتداءً من 10 أوت 1835م أيام انتشار داء الكوليرا، أما في الشرق الجزائري فشل في احتلال قسنطينة 1836م وعلى إثرها تم استبداله بالجنرال دامريمون يوم 12 فيفري 1837م ينظر: كمال بن صحراوي، معجم المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص 144- 145.

[5] Narcisse Faucon, Op.cit, p 500.

[6] مُحَمَّد أوجرتني، رؤية القياد الجزائريين للقضايا الدينية والحضارية من خلال كتاباتهم "أحمد ولد قادي 1805- 1885م باشاغا فرندة"، ندوة الإسلام ورؤية الفرنسيين له، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر- قسنطينة، د.ت، ص 11- 12.

للفرنسيين وإطلاعهم على الخطط الواجب رسمها والأساليب التي عليهم اتباعها[1]، فهو في نظرهم من الآغوات والقياد الشجعان ففي إحدى المواجهات مع الأمير عبد القادر تمكن من إنقاذ الجنرال مصطفى بن اسماعيل من ضربة من أحد جنود الأمير كان يدعى ولد شاقر فقتله وأخذ حصانه، ثم ساهم مرة أخرى في صد جنود الأمير عن مدينة تلمسان في هجوم الكاف بعد معركة شرسة[2].

حضر ولد قادي حرب المقطع والبرج والمعركة الأولى بمعسكر كما شهد قتال مزغران وتاقدمت سنة 1840م، وفي السنة الموالية 1841م حقق النَّصر في معركة تاخمرت فامتاز بنيشان الحرمة من رتبة شوفاليي[3]، وفي سنة 1842م حضر معركة سعيدة ثم شهد معركة مستغانم سنة 1843م[4] ثم انظم إلى الحاج المزاري بعد توليه القيادة لسلطةٍ من قبيلة فليتة في جوان 1843م مع مُحَمَّد بن داود وبن عودة اسماعيل و الحاج قدور ولد الشريف، ليرقى بعدها إلى القيادة على الدوائر برتبة آغا[5] في 11 نوفمبر 1843م، كما شارك في معركة مويلحة في لالة مغنية ضد أولاد عبيد الغناوي الموالين للأمير عبد القادر إلى جانب الماريشال بيجو[6] في 31 ماي 1844م[7].

---

[1] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 41.

[2] علي تابليت، خمس رحلات جزائرية إلى باريز1852- 1901م، الجزائر، منشورات خمسينية جامعة الجزائر 1962-2012م، د. ط، ص 74.

[3] كلمة باللغة الفرنسية ويقصد بها الفارس.

[4] بن عودة المزاري، المرجع السابق، ج 2، ص 299.

[5] **آغا:** انقسمت الدائرة التي تحت إمرة المكتب العربي إلى مجموعة آغاليك التي تضم قبائل يُعيَن على رأسها آغا، يتم تعيينه من طرف الملك الفرنسي باقتراح من قائد المقاطعة، اعتبرته السلطات الفرنسية عون ينتمي للدولة الفرنسية ويحصل على أجرة ثابتة من فرنسا، من مهامه الإشراف على تحصيل الضرائب وانتزاعها بوسائل تعسفية ومراقبة الإشراف على القياد وأيضا ممارسة سلطة تعسفية في حق السكان وإرهاقهم مادياً ومعنوياً ينظر:

شهيناز بوحوص، دور الزعامات المحلية في تحقيق المشروع الإستعماري الفرنسي بالجزائر 1830-1871م، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، مج 07، العدد 02، الجزائر، 2021، ص ص 97- 98.

[6] **بيجو:** ولد في 15 أكتوبر 1784م وصار حاكما عاما للجزائر بين 29 ديسمبر 1840م و29 جوان 1847م، حصل على على لقب مارشال فرنسا في 31 جويلة 1843م، وهو صاحب استراتيجية الأرض المحروقة التي شكلت عبئاً على الجزائريين، انتصر في معركة إيسلي الشهيرة 1844م، توفي في 10 جوان 1849م. ينظر:

كمال بن صحراوي، معجم المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص 74.

[7] علي تابليت، المرجع السابق، ص ص 97- 98.

ومع اندلاع الحرب الفرنسية مع المغرب في معركة إيسلي[1] الشهيرة، شارك فيها ولد قادي على رأس أربعمائة فارس تحت قيادة بيجو، بيليسيي[2]، لاموريسيار[3]، موريس، كفينياك[4]، كاشور والعقيد يوسف ومعهم الأغوات حلفاء فرنسا.

ومع انتشار ثورة بومعزة بالمنطقة أظهر ولد قادي تفانيه في خدمة الفرنسيين مرة أخرى فشارك ضدها، وعليه لما قام الماريشال بيجو بإرساء قواعد تنظيم للبلاد وإنشاء قيادة في زدامة وفرندة وبعد التشاور مع الجنرال لاموريسيار تم تعيينه آغا على زدامة جهة فرندة وقبائل الأحرار في 03 ديسمبر 1846م[5] وذلك كونه الرجل الأكثر قدرة على إعادة الهدوء والنظام وسط القبائل[6].

---

[1] **معركة إيسلي**: معركة شهيرة وقعت في 14 أوت 1844م قرب وجدة بين الجيشين الفرنسي والمغربي، انتصر فيها الفرنسيون بقيادة الجنرال بيجو، من أسبابها موقف المغرب من المقاومة الجزائرية، انتهت باتفاق لالة مغنية في 18 مارس 1845م الذي رسم الحدود بين المغرب والجزائر المحتلة حسب رغبة الفرنسيين أنذاك ما جعل المولى عبد الرحمان سلطان المغرب يعتبر الأمير عبد القادر خارجاً عن القانون. ينظر:

كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 52.

[2] **بيليسيي**: ابن فلاح فرنسي ولد عام 1794م وتوفي 1864م بمدينة الجزائر، شارك في الحملة على الجزائر سنة 1830م، كُلف بإدارة مدينة وهران لمدة ثلاث سنوات وفي سنة 1839م شارك في الحملة على شلف كما ساهم في تدمير تاقدمت، وفي 1842م تمت ترقيته إلى كولونيل ثم إلى ماريشال، شارك أيضا في معركة إيسلي، ثم كلف بالحملة على الجنوب وهو الذي احتل مدينة الأغواط، ثم أصبح حاكماً عاما على الجزائر ابتداءً من 23 نوفمبر 1860م إلى غاية وفاته. ينظر:

كمال بن صحراوي، المرجع نفسه، ص 68.

[3] **لاموريسيار**: ولد بنونت في 05 فيفري 1806م وتوفي ببروزيل عام 1865م، حكم مقاطعة وهران 07 سنوات وقدم مع بيجو بيجو مشروعا للاستيطان بوهران وقسنطينة عام 1848م، ختم مهمته في الجزائر بإنهاء مقاومة الأمير عبد القادر على يديه، ينظر:

كمال بن صحراوي، المرجع نفسه، ص 146- 147.

[4] **كافينياك**: ولد بباريس يوم 13 أكتوبر 1802م وتوفي في 28 أكتوبر 1857م، تم تكليفه بإخضاع المدية فعمل على دحر القبائل المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر بالمنطقة، خلف لاموريسيار على رأس جيش الزواف، وابتداءً من سنة 1845م صار مسؤولاً على مدينة تلمسان، عين حاكماً عاماً للجزائر في 25 فيفري 1848م ثم صار وزيرا للحرب، ينظر:

كمال بن صحراوي، المرجع نفسه، ص 139.

[5] مُحَمَّد أوجرتني، رؤية القياد الجزائريين للقضايا الدينية و الحضارية من خلال كتاباتهم، المرجع السابق، ص 12.

[6] Narcisse Faucon, Op.cit, p 502.

تمكن ولد قادي من القبض على الثائر المضاد لفرنسا "**بن حليمة**" الذي كان مختبئاً في أحد الجبال في أفريل سنة 1847م، ثم زعيم قبيلة فليتة "**قدور بن جلول**" الذي أودِعَ سجن معسكر. وتقديرا لهذه الخدمات الجليلة التي قدمها قدم له المارشال بيجو سرجاً مطرزاً بالذهب وسيوف شرف[1].

ومع الحملة العسكرية التي استهدفت منطقة الأغواط سنة 1852م بقيادة الجنرال بيليسيي Pélissier كُلِّف ولد قادي بالرئاسة على قوم العرب بأسرها[2] فعاث في الأغواط فساداً مع بقية الجنرالات الفرنسيين "بوسكران Bouscarin[3] قائد الخيالة والجنرال ديليني Deligny[4] وغيره من الجزائريين كأحمد بن سالم[5] مقدم مقدم الطريقة التيجانية، انتهت هذه المعركة بانتصار ولد قادي على إخوانه في الأغواط[6]، وعليه تم تقليده بوسام من طرف الجنرال بيليسيي Pélissier الذي وضعه على صدره مفتخراً به نظير مشاركته الفعالة[7] وهو ينطق بهذه بهذه الكلمات: "**هذه مكافأة شجاعتك التي شهدتُها بنفسي، لم يكن بإمكانك العودة إلى المنزل دون علامة التميُّز هذه التي تستحقها تماماً**"[8].

وفي السنة الموالية 1853م أرسل الجنرال راندون Randon حملة إلى ورقلة لتفقد أحوالها، شارك فيها عشرة قياد بما فيهم أحمد ولد قادي الذي سهلها بنصائحه والتحضيرات الذكية التي أشرف عليها[9].

---

[1] Narcisse Faucon, Op.cit, pp 502- 503.

[2] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 161.

[3] **بوسكران Bouscarin**: 1804- 1852م كان حاكماً لمعسكر، شارك في حملة الأغواط عام 1852م وأصيب برصاصة أودت بحياته بعد أيام من ذلك، ينظر:
كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 161.

[4] **ديليني Deligny**: 1815- 1902م من الجنرالات الذين ساهموا في بسط النفوذ الفرنسي في الغرب الجزائري، كان حاكما عاما في وهران، وصفه ولد قادي في رحلته إلى باريس بالبطل المشهور، ينظر:
كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع نفسه.

[5] **أحمد بن سالم**: واحد من خلفاء الأمير عبد القادر، كان له دور كبير في إخضاع جهة البويرة، نفته فرنسا إلى المشرق، توفي عام 1857م، أورد أبو القاسم سعد الله في هذه الشخصية رأياً مفاده أنه تعاون مع الفرنسيين ابتداءً من سنة 1843م ومن ذلك خلافته لهم على الأغواط، ينظر:
كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 163.

[6] علي تابليت، المرجع السابق، ص 75.

[7] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 365.

[8] Narcisse Faucon, Op.cit, p 503.

[9] Ibid, p503 .

تنازل ولد قادي كغيره من كبار الملاك عن بعض أملاكه لصالح المستوطنين مقابل نيل رضا الفرنسيين ففي 12 جانفي من نفس السنة تنازل عن المكان المسمى ببورشراش[1] الذي تبلغ مساحته 3500 هكتار وذلك بتوقيع نابوليون الثالث[2]. قاد ولد قادي أيضا حملة عسكرية أخرى على منطقة البيض بعد أن كلفه الجنرال ديليني ديليني Deligny بذلك سنة 1864م أيام ثورة أولاد سيدي الشيخ[3] ونظراً لجهوده المتواصلة وإخلاصه للفرنسيين تم تعيينه باشا آغا[4] فرندة في 16 مارس 1865م وذلك أيام حكم الوالي العام ماكماهون*[5] وتم توسيع توسيع قيادته إلى قبائل أحرار الغرابة التي قاومت مراراً فكان لا بد من الإمساك بها بيدٍ قوية كيد أحمد ولد قادي[6]. قادي[6].

وخلال المجاعة التي ضربت الجزائر عام 1867م استخدم ولد قادي ثروته لتخفيف بؤس الناس فأظهر إنسانية جديرة بالثناء وبهذه المناسبة تلقى رسالة تهنئة من المارشال ماكماهون[7] يقول فيها: **"لقد خدمت دون قيود وساعدتنا بمشورتك الحكيمة، لقد كنت رجلاً جريئاً ومغامرا وعقلا مستنيرا ومديرا ماهراً، ديبلوماسيا أرائه قيمة كبيرة، لقد فهمت مهمتنا الحضارية، تحترم دائما ممثلي السلطة احتراما شديداً، وسعيت لتوطيد**

---

[1] **بورشراش:** قرية جهة العامرية كانت تسمى قبل الاحتلال بورشراش ثم صارت تعرف باسم Frederic henri le normand de lourmel، ينظر:
علي تابليت، المرجع السابق، ص 77.

[2] المرجع نفسه.

[3] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 365.

[4] **باشا آغا:** يتم تعيينه من طرف الملك الفرنسي بتوصيةٍ من قائد المقاطعة، له أجرة ثابتة مدفوعة من قبل الدولة الفرنسية، يوفر البيانات الضرورية للسلطات الفرنسية ومن مهامه استقبال الجواسيس وأعوان الاحتلال وإكرامهم ومتابعة الفارين إضافة إلى تجنيد القبائل والمشاركة بقواته العسكرية إلى جانب الجيش الفرنسي للقضاء على القبائل الثائرة على الاحتلال. ينظر:
شهناز بوحوص، المرجع السابق، ص ص 96- 97.

[*] **ماكماهون:** ولد سنة 1802م وتوفي سنة 1893م، قائد عسكري بارز وثالث رئيس للجمهورية الفرنسية، عيّن حاكماً عاما للجزائر سنة 1864م شهدت الجزائر خلال فترة حكمه مجاعة رهيبة في سنوات 1867م، 1868م، 1869م، ينظر:
العربي بوعناني، المرجع السابق، ص 250.

[5] علي تابليت، المرجع السابق، ص 76.

[6] Narcisse Faucon, Op.cit, p 503.

[7] Ibid.

العلاقات الفرنسية وتوظيف العائلات وممتلكاتها لخدمة فرنسا ومشاريعها"[1]. وتمت ترقيته إلى رتبة ضابط كبير في جوقة الشرفGrand officier de la légion d'honneur في 11 أوت 1867م[2].

ومع اجتماع مجلس وهران برئاسة المارشال راندون لمناقشة بعض القضايا التي تخص الجزائر تم توجيه دعوة لبعض أعيان المقاطعات الثلاث كممثلين عن الجزائريين فحضر الباشا آغا ولد قادي ممثلا عن مقاطعة وهران وكعضو في المجلس العام بوهران وبعد افتتاح الجلسة اقترح رئيس بلدية البليدة M.Bourby مشروعا يقضي بتعمير الجزائر من خلال إعفاء العائلات القادمة من أوروبا من أداء الخدمة العسكرية، لكن هنا عبر ولد قادي عن رأيه الغير المعهود برفضه الشديد للممارسات الفرنسية ضد الأهالي مركزاً على ترك الحرية للعرب لممارسة شعائر دينهم مع احترام فرنسا لتعهداتها التي وقعت عليها في معاهدة الاستسلام.

وإضافةً إلى هذا وجه ولد قادي مرة أخرى انتقاداتٍ حول موضوع ملكية أراضي العرش التي نص عليها قانون سيناتوس كونسيلت سنة 1863م مؤكداً على أنَّ عادات العرب لا تشبه عادات وتقاليد المعمرين، وأنَّ هذا القانون سيؤدي في الأخير إلى تفتيت بنية الملكية الزراعية والعائلة الجزائرية لكن لا شك أنَّ هذه التدخلات توحي بأنَّ أحمد ولد قادي شعر بأخطار السياسة الاستعمارية عليه[3].

ومع توالي زيارات الأعيان الجزائريين إلى العاصمة الفرنسية باريس من وقت لآخر قام ولد قادي بالتوجه على رأس وفد هام لحضور معرض باريس الدولي سنة 1878م[4] فكرر نفس التدخلات والتي دونها في كتابه **"الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية"**.

لعب ولد قادي مرة أخرى دوراً كبيرا كعادته في التضييق على ثورة بوعمامة سنة 1881م من خلال تقديمه لخدمات جليلة للسلطات الفرنسية فقد قام بالتبليغ عن تحركات بوعمامة مستعملاً لذلك الكثير من الجواسيس الذين كانوا منتشرين في منطقة قبائل الأحرار الغرابة[5]، معتبراً أنَّ هذا العمل واجبٌ عليه وهو أقل ما يمكن تقديمه للدولة مقارنة بما سبق بسبب كِبَر سنه حيث يقول: "...**فهذا ما وجب عليَّ من الإنذار...فلو كانت لي القوة**

---

[1] مُحَمَّد أوجرتني، رؤية القياد الجزائريين للقضايا الدينية والحضارية من خلال كتاباتهم، المرجع السابق، ص 13.

[2] Narcisse Faucon, Op.cit, p 503.

[3] العربي بوعناني، المرجع السابق، ص ص 390- 391.

[4] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860- 1900م، ج 1، الجزائر، عالم المعرفة لدار النَّشر والتوزيع، د. ط، 2009م، ص 166.

[5] العربي بوعناني، المرجع السابق، ص ص 370- 378.

والاستطاعة كسنة 1864م و1871م لكنت نعمل ما يجب اتخاذه حباً أو كرهاً لكن لمَّا لم تبق لي الطاقة السابقة اقتصرت على إرسال جميع الأخبار التي تبلغني.."[1].

أمام هذه الخدمات المختلفة التي قدمها ولد قادي يمكن إجمال الرتب التشريفية والأوسمة التي تحصل عليها نظير عمله وإخلاصه في:[2]

1) فارس جوقة الشرف بتاريخ 17 أوت 1841م.
2) ضابط جوقة شرف بتاريخ 22ديسمبر 1852م.
3) قائد جوقة الشرف بتاريخ 18 سبتمبر 1860م.
4) أكبر ضابط لجوقة الشرف بتاريخ 11 أوت 1867م.
5) مقيم مسلم بالمجلس العام لعمالة وهران.

استمر ولد قادي في خدمة فرنسا وتوريث ذلك لأبنائه وحفدته فكان ابنه بلحضري من أقوى الفرسان في المقاطعة حيث شارك عام 1865م في معركة غاريت ضد أولاد سيدي الشيخ وأظهر شجاعة أكسبته في سن الواحد والعشرين من عمره وسام صليب جوقة الشرف[3]كما كان قائداً بزدامة وشلف وغيرهم من دائرة فرندة[4]، شارك أيضا في معركة مقورة سنة 1872م حيث قام بتعزيز قوات الجيش الفرنسي، ثمَّ استُبدل بأخيه علي المولود سنة 1854م[5] الذي كان قائداً على الشلاق ثم آغا على سيدي قادة كاشور، في حين كان ابنه مُحَمَّد المفضل عند عند الباشاغا قائداً على فرقة من عرش الدوابر (قبيلة أولاد زيان الغرابة) وآمُحَمَّد قائداً بعرش الأحرار[6] وابنه بومدين كان رئيس بلدية هاوارت بفرندة المختلطة[7]، إلى جانب أخيه الزوبير الذي كان قائداً على فرندة أيضا وكان يحمل

[1]كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 273.
[2]محمود حيدر، المرجع السابق، ص 366.
[3]مُحَمَّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 620.
[4]بن عودة المزاري، المرجع السابق، ص 314.
[5]علي تابليت، المرجع السابق، ص 76.
[6]بن عودة المزاري، المرجع السابق، ج 2، ص 314.
[7]مُحَمَّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 620.

علامة الافتخار التونسية، أمَّا التوأمان عبد القادر ومُحَمَّد صغير فلم يتوليا شيئا من الخدمة الجونسية[1]، لأنهما كاناَ قُصَّر[2].وهذا التوزيع في الوظائف الإدارية بين أبنائه يدل على مكانة الأسرة عند حلفائها الفرنسيين.

إنَّ الأمور لم تبق على حالها فبالرغم من تفاني ولد قادي في خدمته للاستعمار بكل أبعاده إلا أنَّه تعرض لمضايقات كبيرة وسوء معاملة من قبل الإدارة الفرنسية التي يهون عليها التحول في معاملة حلفائها من الأهالي لمجرد الشكوك[3]، ففي سنة 1881م تعرض للاعتقال والمحاكمة وذلك بعد توجيه الاتهام إليه بالتآمر ضد النظام الفرنسي خلال توجيه الحملة الفرنسية على تونس، كما أنه من الممكن أيضا أنّ هذا الاعتقال يكون مجرد خطأ كان ولد قادي ضحيته[4]. لكن لم يستمر ذلك طويلاً فقد استرجع الرجل مكانته وممتلكاته وتم الاعتماد على بنيه في إخماد التمردات بمنطقة الغرب الجزائري[5]، وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل أنّ حماسته وشجاعته لم يعملا لصالح أمته وبلده[6].

المبحث الثالث: التعريف بالرِّحلة

إنَّ الرحلات الجزائرية خلال القرن التاسع عشر ميلادي تمت برعاية خاصة من الحكام العسكريين الفرنسيين في الجزائر وفرنسا التي كانت تنقل وفوداً جزائرية إلى باريس في كل مناسبة من المناسبات الهامة كممثلين عن الشعب الجزائري للمشاركة في الاحتفالات أو الأعياد...إلخ، فظلَّت تنظمها وتدعم أصحابها وتختارهم بعناية[7] بعناية[7] بهدف التغيير من الذهنية الجزائرية تجاه الاستعمار الفرنسي ولهذا أشرفت الإدارة الفرنسية على طباعتها

[1] بن عودة المزاري، المرجع السابق، ج 2، ص 315.

[2] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 14.

[3] مُحَمَّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 620.

[4] Kamel Bensahraoui-Djali Moufida, Ahmed Ould Cadi Bachagha de Frenda entre loyauté envers la France coloniale et montée des revendications nationales,OUSSOUR Al Jadida Revue, Vol 14 No1, 1445/2024, p 373.

[4] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 365.

[4] المرجع نفسه، ص 365.

[5] المرجع نفسه، ص 365.

[6] Kamel Bensahraoui-Djali Moufida, Op.cit, p 373.

[7] خالد زيادة، ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس 1852م- 1878م- 1902م سليمان بن صيام أحمد ولد قاد و مُحَمَّد بن الشيخ الفغون القسنطيني، بيروت- لبنان، دار فارس للنشر والتوزيع، ط 1، 2005م، ص 14.

ونشرها[1]. وفي هذا الإطار تمت رحلة أحمد ولد قادي التي تعتبر أهم من سابقاتها وذلك لأنَّ صاحبها كان قد زار فرنسا في مناسبتين سابقتين للرحلة المعنية بالدراسة وبالتالي قد وقف على عدة جوانب وتجاوزها إلى غيرها في الرحلة الأخيرة[2].

تمت هذه الرحلة سنة 1878م زار خلالها أحمد ولد قادي عدة مدن ومنها العاصمة باريس، وقد حملت عنواناً لا يخلو من دلالة تأثر الكاتب وإعجابه بالبلد الذي زاره رغبة منه في تعريف أهل البادية من بني قومه بما رآه وشاهده ليتأثروا ويقتدوا به هم كذلك فكانت بعنوان " **الرّحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية**" وهي مخطوط وثَّق فيه بعد عودته مشاهداته وملاحظاته المختلفة، مبيِّناً مستويات التأثر بالحضارة الغربية في هذا البلد (فرنسا) مصوراً في الوقت نفسه الحالة المزرية التي كان عليها الجزائريون[3].

نشرها ولد قادي باللغة العربية مترجمة إلى الفرنسية سنة 1878م[4]، واهتمت جريدة المبشر[5] بنشرها على على حلقات ابتداءً من شهر ديسمبر 1878م ثم طبعت على نفقة الدولة في كتيِّب تأخر صدوره إلى غاية سنة 1888م[6] كما نشر هذا المخطوط أيضا بالمكتبة الوطنية الفرنسية على موقعها الرسمي Gallica.fr وهو ضمن المنشورات المتاحة عبر الأنترنت بعنوان: Impressions du voyage à paris de si Ahmed Ould Kadi bach-agha de frenda. ومن المعاصرين ذكرها صاحب كتاب طلوع سعد سعود قريبه ابن عودة المزاري لكن دون تفصيل[7].

---

[1] عبد الحميد عومري، المرجع السابق، ص 206.

[2] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 364.

[3] مُحَمَّد أوجرتني، رؤية القياد الجزائريين للقضايا الدينية والحضارية من خلال كتاباتهم، المرجع السابق، ص 14.

[4] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص 04.

[5] **جريدة المبشِّر**: هي جريدة مزدوجة اللُّغة أنشأتها السلطات الاستعمارية، كانت من أولى الصحف صدرت ابتداءً من سنة 1847م واستمرت إلى غاية سنة 1917م، من أهدافها الحرص على إعلام الجزائريين بما يخص شؤونهم اليومية وبما يصدر عن الإدارة الاستعمارية وكذا متابعة مشروع التطور الاستعماري بالجزائر وعلاقة السكان به في إطار العمل على إدماجهم والتأثير عليهم وإبعادهم عن مسارات الانتفاض والثورة، كما أنَّها تابعت الشأن السياسي العالمي أنذاك ونشرت في التجارة والعلوم والثقافة وغيرها، ينظر:

أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م، ص 225- 226.

[6] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 367- 366.

[7] مُحَمَّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 621.

انطلقت هذه الرحلة من مرسى الجزائر في شهر شعبان 1295هـ المطابق لشهر أوت سنة 1878م إلى باريس[1] وهي رحلته الثالثة إلى فرنسا ضمن وفدٍ من الأعيان الجزائريين، ويستفاد من مقدمتها أنه هو الذي ألح على أن يكون مع الوفد الذي يمثل منطقة الغرب من الوطن[2] من خلال قوله: "**ولما تعلق القلب بزيارة فرنسا مرة ثالثة واشتاقت النَّفس للتمتع برؤية تلك المدن العظيمة...رجوت أن أكون مع من حضر وقلت لعل غرس التَّمني يثمر...**"[3] فكان له ذلك بفضل حاكم العمالة الوهرانيةكما يقول: "...**وكان حاكم عمالتنا الوهرانية سيادة الجنرال سيريس سبباً في اغتنامنا هذه الفرصة...**"[4].

بعد عودة ولد قادي إلى الجزائر خط نص الرحلة بخطٍ مغربيٍ متوسط الأناقة بحجم كبير في نحوِ خمسين صفحة[5] وكل صفحة تحتوي نحو ما يقارب خمسة عشر سطراً بلغةٍ عربيةٍ فصحى تتخللها أخطاء إملائية وبلاغية كعدم تحقيقه مثلاً لهمزة القطع فيكتبها مثلها مثل همزة الوصل مثل: ادنى، انواع ...وغيرها، مع إبداله للهمزة في وسط الكلام إما ياءً مثل: غرايب، نتايج، عجايب...، أو ألفاً مدية مثل: سياتي، راينا...، بالإضافة أيضا إلى توظيفه للعديد من الكلمات العامية مثل كلمة كوَّة والتي تعني النافذة الصغيرة وكلمة باباغان التي يقصد بها الببغاء[6] الببغاء[6] وكلمة بشماط التي يعني بها نوع من الحلويات "البسكويت" وكلمة الطبجية أي المدفعية وكراريس التي تعني تعني العربة[7]، ضف إلى هذا توظيفه لمفرداتٍ فرنسية معربة مثل: لبرطي، إقاليطي، فرطرنيطي والتي يعني بها الحرية والأخوة والمساواة شعار الثورة الفرنسية، وكلمة الاسبيتال والتي تعني المستشفيات والأبوقاط التي تعني المحامي، أما فيما يخص استشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو حتى الأبيات الشعرية فلم يلاحظ ذلك إلا نادرا ومجمل هذا يدل على مستوى تعليمه المحدود.

اتبع ولد قادي في كتابته منهجيةً محكمة وبناء سليم وحديث في عرض تفاصيل رحلته مما يوحي بتأثره الواضح بالمناهج الغربية في الكتابة كما من الممكن أنه قد يكون استعان ببعضهم في كتاباتهم بمنهجية الفصول[8].

---

[1] أحمد ولد قادي، الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، 1878م، ص 05.

[2] عمر بن قينة، المرجع السابق، ص 19.

[3] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 03- 04.

[4] المرجع نفسه، ص 07.

[5] محمد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 621.

[6] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 375.

[7] خالد زيادة، المرجع السابق، ص ص 56- 61- 62.

[8] محمد أوجرتني، رؤية القياد الجزائريين للقضايا الدينية والحضارية من خلال كتاباتهم، المرجع السابق، ص 202.

فقسمها إلى أربعة فصول وشبه مقدمة بدأها بالبسملة والصلاة على رسول الله ﷺ، خصص الفصل الأول للحديث عن محاسن فرنسا وملاقاة أعيان العرب مع أرباب الدولة والذي جاء في نحو 08 صفحات، والفصل الثاني خصصه للحديث عن عجائب معرض باريس وما يتعلق به فجاء في نحو 13 صفحة، أمَّا الفصل الثالث فكان للحديث عن كيفية تسراد الجيوش وتنظيمها بفسحة فانسان جاء في نحو 07 صفحات، ثمَّ الفصل الأخير خصصه أولاً لوصف توديعهم لفرنسا عند خروجهم منها وثانياً قدَّم عرض حال الجزائريين لولاتها حيث جاء في نحو 15 صفحة.

أمَّا عن الأفكار التي تضمنتها هذه الفصول فقد كانت في مجملها تصب في سياق تلميع صورة فرنسا مع الإطناب والمبالغة في مدحها والثناء عليها[1] فقد جعل أساسها ذكر محاسن فرنسا وما لقيَه من حفاوة بأسلوب ممتعٍ ومشوقٍ يطغى عليه طابع الانبهار والإعجاب بالحضارة الغربية ممَّا يجعل القارئ يشعر وكأنه يرى ذلك رأيَ العين فقد ذكر العديد من التفاصيل وحاول شرح كل ما يراه ويصفه وصفاً دقيقاً مستعملا في ذلك التشبيه بكثرة لتقريب صورة خالية من الغموض قريبة إلى الحقيقة، وعليه تعتبر هذه الرحلة نموذجاً ناجحاً إلى حدٍ ما في أداء وظيفتها المحددة ألا وهي نقل جوانب المدنية الفرنسية من شاهدٍ عيان[2].

المبحث الرابع: دراسة مضمون الرِّحلة.

بدايةً من خلال العنوان أفصح ولد قادي عن مقصده من الرِّحلة وهو التشهير بمحاسن الحضارة الفرنسية والترغيب فيها لانتفاع من لم يكن حاضراً فهو يقول: "...**وقلت لنفسي اعتبر يا ولد قادي وأخبر من يعتبر...**"[3] حيث تردد لديه ذلك في مواضع كثيرة استحسانا وذهولا أمام الإنجازات العظيمة في فرنسا وهذا ما يتضح جلياً من خلال فصول رحلته.

أولا: الفصل الأول "محاسن فرنسا وملاقاة أعيان العرب مع أرباب الدولة"

خَصص ولد هذا الفصل لذكر محاسن فرنسا وتعظيمها فقد كان مأخوذاً شوقاً إلى باريس فمن بداية الرحلة في الجزائر لم يلتفت الرجل إلى ما حوله حيث اكتفى بذكر محطة وزمن الانطلاق (مرسى الجزائر، أوت1878م) "...**إنَّا ركبنا البحر...قاصدين المدينة العظمى باريس التي اجتمع فيها ما افترق في غيرها من**

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص ص 375- 376.
[2] المرجع نفسه ، ص 375.
[3] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 15.

الحسن والإحسان، وضمَّت ما تشتاق إليه الأنفس وترغب في سماعه الآذان..."[1] ثمَّ راح مباشرة يصف مظاهر الحفاوة وحسن الاستقبال فقد استقبله أهلها بالبشاشة في أحسن المنازل متفقدين لأحوال الوفد المرافق طوال الوقت فيقول في ذلك:"...**فاستقبلنا أهلها بالبشاشة...فنزلنا بأحسن المنازل...ولم يزالوا متفقدين لأحوالنا تفقد المرضع لرضيعها ساعة بساعة، ملحين علينا فيما نحتاج إليه بكرة وعشية، موائدهم للأضياف منصوبة وعوائدهم لكل طارق مرغوبة..."**[2].

لينتقل بعدها للتَّعبير عن مدى فرحه عند مقابلة الشخصيات الأولى في الحكومة الفرنسية بدءً بالماريشال ماكماهون ثمَّ بقية رؤساء الدولة الذي يقول فيهم:"...**دعانا الماريشال ماكماهون للحضور بشريف منزله فأكرمنا غاية الإكرام ...ثمَّ عطف علينا بعده رؤساء الدولة وأكرمونا وإلى قصورهم المشيَّدة أدخلونا، فمنها وزير الحرب سعادة الجنرال بوربل...وكذلك وزير الأمور الداخلية...ونائب وزير الأحكام الشرعية...ورئيس الوزراء السيِّد فانبيطا..."**[3]. ليذهب فيما بعد للثَّناء على من كان في نظره سبباً في اغتنامه فرصة التعرف على هؤلاء الرجال من دولة فرنسا فيقول في ذلك:"...**وأثنينا خيراً على من ساعدنا وأعاننا ووفَّى مرغوبنا سعادة الجنرال الفيبرونور جنرال شانز المتدرب في أمور العرب...حاكم عمالتنا الوهرانية الجنرال سيرس...وكذا المعين له السيِّد الكانبرانت مونين، فقد كانوا لنا سببا في اغتنامنا هذه الفرصة لمعرفة رجال فرنسا وواسطةً في التشرف لزيارتهم...فتمتَّعت أبصارنا بمشاهدة ما لم نكن نعرف وتفقهنا بما كنَّا نجهله..."**[4]، وكنتيجةٍ لهذا الاستقبال الذي أبهره حاول ولد قادي نزع الغشاوة عن أعين من كان يظن في فرنسا ظنَّ السوء من العرب فالخبر ليس كالعيان فما شاهده من حسن كرم وضيافة لا يجعل فرنسا إلا خيرة البلدان وملوكها أفضل الناس وسياستها أحسن السياسات فيقول:"...**وقد كان العرب يظنون فرنسة عندما لحظتها عيون السوء انتقاص شأنها فلما وقفنا بها وجدناها قذىً في أعين الحاسدين وأنَّها أجل قدراً وأعظم قوة مما كانت عليه...فحمدنا الله على ذلك.**"[5]. لكن هذه النَّظرة لولد قادي كانت قصيرة المدى فهو لم يدرك الغرض الذي جُلب لأجله من الجزائر إلى

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق ، ص 05.
[2] المرجع نفسه
[3] المرجع نفسه، ص 06.
[4] المرجع نفسه، ص 07- 08.
[5] المرجع نفسه، ص 07.

باريس والذي جعل السلطات الاستعمارية تعمل على استمالته ليكون رسولها في كسب ود الجزائريين لينقلب في نظرهم الباطل حقاً والظلم عدلاً والقهر والإبادة رفقاً وعدلاً فهذا حسب زعمه مصلحةً لهم.

ثمَّ شرع ولد قادي في وصف ما شدَ انتباهه في المدن الفرنسية شعار الثورة الفرنسية الذي وجده أمامه في كل مكان زاره فحروفه العملاقة تنتصب على جدران كل المدن"...**ليبرطي، إقاليطي، فرطرنيطي وأعني الحرية والأخوة والمساواة يا لها من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب ويا ليت النَّاس تعرف قدرها وتعلم ما ضمته من معاني**..."[1]، وما زاد تعلقه بهذا الشعار في نظره هو تطبيقه عليه وعلى الوفد الذي يمثل العرب فقد ساووهم مع النُّجباء من فرنسا بالرَّغم من عدم التوافق بينهم فتمتعوا بكامل حرياتهم ما جعل حبه لفرنسا يزداد فيقول:"... **لما علمناه من حرياتنا نحن العرب ومساواتنا مع النجباء أولاد فرنسة، وإن كنا لا نساويهم في العلوم والخدمة ...فالآن والحمد لله قد ثبت عند المسلمين اعتناء الفرنسويين بهم كالاعتناء بأولادهم**..."[2] في محاولة أخرى منه لنزع صورة فرنسا المحتلة من أعين الجزائريين.

وأمام هذا التعظيم اعترف ولد قادي لفرنسا أنها أحيت علوم المسلمين و اعتنت بها[3] فبدى متأثراً بالسياسة التعليمية الفرنسية فقد أثنى على الفرنسيين لما فتحوا المدارس ليتعلم فيها أبناء الأهالي المسلمين الجزائريين العلوم مبيّنا آثار ذلك التعليم وموقف الجزائريين منها[4]، داعياً إيَّاهم لتغيير تفكيرهم تجاه هذا التعليم والانفتاح عليه مركزاً على جهود فرنسا في تحقيق ذلك من خلال تقريب المدارس إلى بيوتهم فيقول:"...**وأحيت علوما كانت لأسلافنا في القرون الماضية ثم كادت أن تندثر ولم يبق غير الاسم منها...وكفى شاهدا بتربية أولادنا الصغار مع أولاد الفرنسويين في المدارس التي هي ميادين الارتقاء... ولسياسة الدولة جعلت لهم مدارس عند أبواب ديارهم كي لا تفرقهم عن أمهاتهم، ومع تحريضنا لهم ونصيحتنا إياهم أدخلنا بعقولهم ما ينتج للتلاميذ من ثمرة التعليم...ولم نزل نخاطبهم حتى طابت أنفسهم وشرع البعض من أبناء الخيم الكبرى في إرسال أولاده للمدارس، فاستأنسوا شيئا فشيئاً**..."[5]، لكن لا شك أنَّ الكاتب قد فاته القول هنا بأنَّ الجزائريين قبيل

---

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 08.

[2] المرجع نفسه، ص 09.

[3] عبد الحميد عومري، المرجع السابق، ص 204.

[4] خالد زيادة، المرجع السابق، ص 18.

[5] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 09.

الاحتلال الفرنسي كانوا متعلميين يتقنون القراءة والكتابة وانعدمت بينهم الأمية والجهل لكن الحال لم يعد كذلك بعد الاحتلال[1].

وفي جانبٍ آخر يعتقد الكاتب أنَّه **"عمَّا قريب سيأتي زمن يمتزج فيه العرب مع الفرنسيين فما يُنَفر العربي هو أمر الديانة فقط...وفي الحقيقة شرط الديانة هو أنَّ الإنسان يحب لنفسه ما يحب لغيره ويكره لنفسه ما يكره لغيره فإذا كان على هذه الصفة وصفا قلبه، من أي دين كان فهو خيار قومه...وأفضل العباد من اهتم بمصلحة العامة وسعى في خيرها فينموا كالشجرة المثمرة"**[2]، وهنا فسر ولد قادي معنى الدِّين ومقامه بين الناس بنبرة جديدة غير معهودة فموقفه يخلوا من كل تعصب والذي يترجمه في مناسبة أخرى بقوله:"...**فإنَّ فضائل الله ليست محصورة في قوم ولا مختصة بيومٍ دون يوم.**"[3].

وأمام تعداده لنِعَمِ هذه السياسة وضع ولد قادي فرنسا في صورة الدولة المحبة لمصلحة الرعية الحامية لحقوقهم فنسيَّ مرة أخرى أنَّ هذا الظاهر منها يعاكس تماما باطنها، فهذا الادعاء بنشر الحضارة تنفيه مختلف التضييقات التي مارسها الاحتلال في مختلف الجوانب خاصة الدينية والتعليمية، وهكذا لم يذهب بعيدا في تفسيره لهذه السياسة ولم يدرك أبعادها.

ثانياً: الفصل الثاني في عجائب معرض[4] باريس وما يتعلق به.

تصب أفكار هذا الفصل في مجملها في إعجاب أحمد ولد قادي وانبهاره بما لاحظ وشاهد من التطور في العلوم من المخترعات والتقدم في الصناعات والمنتجات وهو الأمر الذي لم يعتد مشاهدته ما جعله يصف كل ما شاهد من مخترعات وصناعات حديثة وصفاً دقيقاً ويسقطها على نظيرتها التقليدية في الجزائر وكأنه يعطينا وجه مقارنة لما وصلت إليه فرنسا وما هي عليه الجزائر فيتساءل كثيرا عن أسباب هذا التفوق فيقول: **"ولما دخلنا دار المعرض الكائن بالمحل المسمى شان دومارس المجتمع فيه غرائب الصناعات الفائقة والاختراعات البديعة**

---

[1] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 369.

[2] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 11- 12.

[3] خالد زيادة، المرجع السابق، ص 18.

[4] معرض : يهدف إلى التعريف بإنجازات الدول في العمران والمنشآت المختلفة والعلوم، تعود فكرة إنشائه إلى القرن التاسع عشر، احتضنته فرنسا سنة 1878م.ينظر:
مُحَمَّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 624.

فوجدناه أمر عجيب.... موضوع بالإتقان والتحكيم وكل شيء يستخرج بالآلات والحركات العقلية..."[1].

ومجمل هذه المشاهدات لا يمكن حصرها في نظره فراح يصف ما شد انتباهه كثيرا في هذا المعرض وهذا يفهم من خلال قوله:"...**هذا شيء غريب لا سبيل لحصره وإنما اختصرنا بعضه ليعتبر العاقل ما يتوصل إليه الإنسان بنور العقل ...**"[2].

وعليه نلخص بعض المشاهدات التي أطنب في ذكر تفاصيلها كانبهاره بمراحل صناعة الأقمشة والألبسة عن طريق الآلات "...**فترى الصوف مثلا في مجملها تخرج خيطا ثم تصير ملفا جيدا ومتوسطا وأدنى، فنقول أين المشط وأين المغزل وأين المنسج وأين الخلالة والشيء المتناول باليد؟ وترى أنواع الأقمشة من حرير كتان بأنواع التطريز المذهب الملون وأصناف الحاشية العريضة والضيقة تخرج بأدنى كلفة ولا عمل يد...**"[3]. إضافة إلى المعادن التي صُنع منها الفأس والشاقور وغيرها فضلا عن صنع مختلف أصناف الحلي من الذهب كالسلاسل والخواتم ...الخ بعد أن كان حجراً ملوثا بالتراب"...**وأما المعادن فترى قطع الحديد بدار العمل مكومة في جهة وترى الفأس والشاقور والمنجل والمحراث... يخرج من جهة أخرى مكمول الصناعة ...فترى مثلا الذهب في معمله حجرا ملوثا بالتراب موضوع في جهة وترى من الجهة الأخرى السوايع والسلاسل عن اختلاف أنواعها وأصناف حلي النساء كالسوار والخاتم...**"[4].

انتقل بعدها لذكر مشاهداته للصور الغريبة وخاصات الماء الرفيعة والآلات التي تشغلها وأعطى مثالا على ذلك مادة القمح التي توضع حبا ثم تصير دقيقا ثم خبزا من الجهة الأخرى"....**ثم ترى الصور الغريبة والسواري المنقوشة وخاصات الماء الرفيعة وهكذا كل شيء يخرج بواسطة الآلات والحركات العقلية، حتى القمح يوضع حبا في جهة ويصير دقيقا مغربلا صافيا بالحركة في جهة ثم يخرج خبزا أو بشماطا للعسكر في جهة وهذا في أسرع وقت والإنسان واقف...**"[5]، وما زاد هذه الدهشة أيضا مشاهدة ولد قادي آلات التبريد التي يستعمل فيها النار والماء معا وكذلك معالجة الماء المكدر والماء المالح فيقول: "...**وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان والضدان لا يجتمعان، فرأينا الثلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية كما رأينا الماء المكدر**

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 12- 13.
[2] المرجع نفسه، ص 20.
[3] المرجع نفسه ، ص 14.
[4] المرجع نفسه، ص 13.
[5] المرجع نفسه، ص 14.

بالأوساخ يعالج ويخرج كاللجين صافيا وكذلك الماء المالح يصير بالمعالجة حلواً..."[1].كما وصف أيضا أحد المحلات المسقفة بالبلور وكيف أنه يُرى فيها ما بِقاع البحر من أنواع الأسماك وغيرها "...**وهناك محل مسقف بالبلور الغليظ...فترى فيها أنواع السمك...ومن لم يعلم ما في قعر هذا البحر يكفيه رؤية ذلك ..."**[2].

ومن الغرائب أيضا رؤيته لمجسم عن صورة إنسان الذي يعني به تمثال الحرية الذي أهدته الجمهورية الأمريكة لفرنسا نظير المحبة القديمة التي جمعتهما فيقول: "...**ومن المشاهدات أيضا أننا رأينا صورة بقامة إنسان من نحاس أكبر من القبة الشاهقة...لما بين الدولة الفرنسوية والأمريكية من محبة قديمة أهدت لها صورة إنسان من نحاس رجله في الثرى ورأسه في الثريا..."**[3].

جلب انتباه ولد قادي أيضا الكثير من المشاهدات التي تتعلق بعالم الحيوانات كتربية الدواجن وطريقة تفقيص البيض آليا وكذا أصناف الخيول ومختلف أنواع الطيور[4] "...**و من جملة ما رأيناه من أدنى الغرايب استخراج أفراخ الطيور من غير تحضين...كما رأينا أصناف الخيل من القصير كالكبش إلى الضخم كالفيل وكذا أنواع الكلاب وهناك طيور من فاخت وبلبل وأشكال عديدة..."**[5]،كما تناول الحديث عن مشاركات الدول الأخرى في هذا المعرض كإسبانيا التي أحضرت مختلف معدات الحرب من زمن الأندلس كالزرد[6]حيث قال: قال: "...**كما أن الإصبانيول أحضر في محل المعرض أنواع آلة الأبطال الأقدمين من زمن الأندلس كالزرد..."**[7].

كما لم يغفل الكاتب عن الحديث عن العمران والمنشآت القاعدية والبنية التحتية لمدينة باريس بنوع من الذهول، فوصف بدقة وادي باريس وكيف أنه يسع مرور أربع عربات نقل محاذية لبعضها، وما أثار دهشته أيضا كثرة الزوار لهذا المعرض وكيف أنهم يجتمعون فيه رغم اختلافهم في اللغة والشكل والطبع واللباس ومع هذا لا يسمع لهم ضوضاء وهذا ما يجسد الشعار الذي أثار إعجابه في بداية الرحلة "...**وادي باريس، فإن هذا المحل**

---

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق.

[2] المرجع نفسه، ص 15.

[3] المرجع نفسه ، ص 17.

[4] مُحَمَّد أوجرتني، الباشاغا أحمد ولد قادي، ص 625.

[5] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص18- 19.

[6] يقصد به الدرع.

[7] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 19.

الغريب يشقه أحد الأودية العظام في الدنيا المسمى لاسين قنطرته المعتادة تسع مرور أربع عربات محاذية لبعضها، ولما حان وقت افتتاح المعرض جعلوا فوق القنطرة سطحا من الحديد والأخشاب المتينة ممتدة من الجانب إلى الجانب في غاية التحكيم فصارت تسع مرور عشرين عربة وذلك خلاف من يمر تحت القنطرة في المراكب البخارية المسماة عندهم موش أعني الذباب... وترى الناس في محل المعرض كموج البحر المترددة إليه أفواجا أفواجا ...قوم متعجبة من قوم لما بينهما من تباين في اللغة والشكل والطبع واللباس، فتراهم يتبادرون للمسألة والمكالمة والمصالحة ويرغبون بعضهم بعض للحضور على موائد الطعام كأنهم إخوان ... ومما يستغرب أنه مع اختلاف هذه الأقوام والملايين من الخلق، لا يسمع لهم دوي ولا ضوضاء فهذه ثمرة الثلاث كلمات الحرية الأخوة والمساواة..."[1].

بعد هذا الإعجاب والانبهار الشديد أنهى الكاتب فصله بالثناء والمدح على السلطات القائمة على إدارة الشأن السياسي في البلاد ثم استحضر حادثة وفاة أحد الأعيان الجزائريين بفرنسا "إسماعيل بن المزاري" ليعزز مدحه بالثناء على تصرفهم وكيفية تعاملهم مع الأمر فقد شيعوه وأقاموا له المأتم ومن ثمة نقلوا جثمانه إلى الجزائر للدفن[2] فيقول في ذلك:"...**فجزى الله الدولة الفرنسوية عن العباد خيرا لأنها الواسطة لهذه الفضيلة...ومن جملة ما يجب شكره ولا ينقطع ذكره هو أن أحد أبناء الخيم الكبرى من الدوابر يسمى إسماعيل بن المزار الذي أمضى زمنا طويلا في خدمة الدولة كان توجه إلى حمام فيشي بفرنسة لعلاج مرضه فأدركته المنية هناك مع وصولنا فوجدنا أهل تلك المدينة في غاية الوقوف معه، فمن ذلك جعلوا البعض واقفين للتعزية منكسين الرؤوس مظهرين الحزن...كأنهم من أولياءه...ثم جعلوا له تابوت وشيعوه في التوجه إلى وهران بغاية التحفظ والاعتناء الكامل..."**[3].

وما يلفت النظر في آخر هذا الفصل هو حديثه عن زيارته لقبر الجنرال "لاموريسيار" التي لم يوضح دوافعها وأسبابها[4]، لكن عبَّر عن احترامه الشديد له مستحظرا حينها ذكرياته معه ومع عمه الجنرال مصطفى بن اسماعيل متأسفا عن فقدانهما متمنيا في الوقت نفسه عودتهم فيقول "**وفي يوم من أيام سفرنا صادفنا وقت لزيارة قبر المرحوم الجنرال لاموريسيار الملقب عند العرب بوهراوة ...فسلمنا عليه واحترمناه احترام الحياة وقد**

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 21- 23.
[2] محمود حيدر، المرجع السابق، ص 371.
[3] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 22- 24.
[4] محمود حيدر، المرجع السابق، ص ص 24- 25.

تذكرنا الأيام الماضية معه ومع الجنرال مصطفى بن اسماعيل وقوم الدوايرمعتبرين الزمن القديم وأهله وقلنا له تأسفا على سبيل التمني: آه على الدنيا ...ليتك تعود إليها كي تزجر بهراوتك من استوجب الزجر فرحم الله قوما أسسوا الخير والعافية في البلاد، وأطال عمر سادات اليوم الساعين في تكميل القصد والمراد..."[1] الامر الذي يعكس ولاءه واخلاصه الشديد للدولة الفرنسية.

ثالثا: الفصل الثالث في تسراد الجيوش.

مواصلة في وصف وسرد مشاهداته تحدث ولد قادي في هذا الفصل عن الاستعراض العسكري الذي شهده بفسحة فانسان بتاريخ 18 رمضان 1295هـ الموافق ل15 سبتمبر 1878م الذي تميز بحسن التنظيم والتسيير، وصف بدقة تدريب الجيوش عن اختلاف أصنافها كالخيالة وجنود الطبجية (يقصد بها المدفعية)...الخ ومعدات الحرب على أنواعها كالطبجية ومختلف الفنون الحربية كفن الرمي بالمدفع كما لم ينس سيارة الاسعاف التي خصصت للمرضى و المجاريح لتجنب مضرتهم" **ففي يوم الأحد الخامس عشر من سبتمبر تشرف البعض من أعيان العرب بالحضور في تسراد العساكر وتدريبها وتنظيمها على هيئة القتال شيء غريب وكان ذلك بفسحة في غاية الاتساع قرب باريس تسمى فانسان معدة لتمهيد جنود الطبجية في فن الرمي بالمدفع، فلقد تمتعت نواظرنا وانشرحت خواطرنا...وهذا الجيش الذي رأيناه يشتمل على نحو الخمسين ألف ما بين المشاة على اختلاف أصنافها والخيالة على أنواعها والطبجية بمدافعها ... وقد رأينا الاسبيتال محمول فوق الكراريس متينة مطلاة بالأحمر والأبيض بين الأجناس في القتال على احترام المرضى والمجاريح واجتناب مضرتهم..."**[2]. لكن ما دامت الدولة الفرنسية على حد تعبير ولد قادي لها من الإنسانية ما يجعلها تهتم بكل صغيرة وكبيرة في الحروب لم يرى هذا الاهتمام في الدولة المراد نشر الحضارة فيها؟.

في آخر هذا الفصل أطنب الكاتب في مدح شخص الماريشال ماكماهون الذي حضر المهرجان إلى جانب الوفود والبعثات الرسمية الأخرى فوصفه كالبدر بين الكواكب "**أقبل حضرة الماريشال ماكماهون في أبهة ومحفل بهي كالبدر بين الكواكب راكبا على حصان، تلوح عليه سمة الملك... وبالجانب الآخر الأمير أخ ملك روسيا ورؤساء الدول وسفرائها كالترك والطاليان والإسبانيول والبروس وغيرهم، كل منهم مميز عن غيره بزي**

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص25- 27.

[2] المرجع نفسه، ص ص 25- 27.

لباسه..."[1]، وينهي كلامه بعدها بالحديث عن سروره بالوليمة التي أعدها ماكماهون لجموع الوفود والأعيان والضباط على اختلاف رتبهم. فيقول "...**وفي الغد الذي هو يوم الإثنين عشية دعانا المارشال ماكماهون لوليمة أعدها لكبراء جيوش فرنسا ورؤساء الأجناس الأجنبية، فكانت ليلة مشهودة قل ما يأتي الزمان بمثلها يعجز الواصف عن وصفها..."**[2]

رابعا: الفصل الرابع في توديع العرب لفرنسة وعرض حال لؤلاتها.

عاد ولد قادي في هذا الفصل إلى الواقع المعاش في الجزائر الذي انفصل عنه في الفصول السابقة ليجد نفسه أمام تناقض كبير بين فرنسا الحرية والمساواة في أوروبا وفرنسا الظلم والاستبداد في الجزائر، ما جعل شعور الحزن الشديد ينتابه عند مفارقة هذه المدينة العظيمة، فنراه يودع باريس يوم الرحيل عائدا إلى وطنه مضطرب الفؤاد دامع العينين فقد سقط صريع حب جارف لفرنسا الغير استعمارية مبهورا في غياب فرنسا الاحتلال التي تمارس بطشا في وطنه؛ الأمر الذي عميَ عنه في حضور الصورة اللماعة والوجه البراق لهذه الدولة[3] فيقول في ذلك: "...**هذا ولما آنَ وقت الرحيل جرعنا كأس الفراق بعد حلاوة التلاق ولم يصبنا يوم خروجنا من وطننا مثل ما أصابنا يوم الخروج من فرنسة، فانصرفنا والعيون ملتفتة إليها وسافرنا والقلب بها لكن صبَّرنا بالأماني أنفسنا وقلت لعل القضاء أيضا يجمعنا ثم قلت توديعا من صميم الفؤاد سلام عليكم يا أهل الود والوداد...**"[4].

هذا التباين بين فرنسا الحضارة وفرنسا الاستعمار جعل ولد قادي لا محالة يدعو حكام فرنسا إلى النظر في حال العرب ملقيا باللَّوم عليهم لجهلهم بقوانين هذه الدولة التي شبهها بالأفعى من عرفها قتلها ومن لم يعرفها قتلته وفي هذا السياق ضرب مثالا حيًا عن واقع الشعب الجزائري أنذاك حكى من خلاله عن ذلك فيقول:"...**ومما ينبأ عن تغفل العرب وجهلهم بالأمور أنَّ أحد العرب كان عليه مالا في ذمته ليهودي...فلما قرب أجل الدفع بعث للعربي ورقة يدعوه للحضور أمام الشريعة، فرفع العربي الورقة التي جاءته وذهب بها إلى صاحبه اليهودي فاعتذر له طالباً منه المهلة ظنا منه كشريعتنا في تمديد الآجال، فيُهَوِن عليه اليهودي الأمر وقال له ارجع لبلادك لا تخف فإنَّ حضوري يكفي عليك ثم لما نوديَ على اليهودي أجاب قائلا**

[1]أحمد ولد قادي، المرجع السابق ، ص ص 27- 30.
[2]المرجع نفسه، ص 31.
[3]عمر بن قينة، المرجع السابق، ص ص 20- 21.
[4]أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 33.

والعربي في بيته غاص في غفلته فحكمت عليه الشريعة حكم الغائب ....إلى أن جرى عليه الحكم البت وبيعت بلاده غبناً، ومثل هذا كثير الوقوع بالعرب فلو كان لهم علم بالطريق لما ضلوا..."[1].

طالب ولد قادي بعدها فرنسا بانتهاج سياستها في أوروبا على الجزائريين الذين يسيرون شيئاً فشيئاً نحو التمدن والاقتداء بفرنسا وذلك بإدخالهم في دواوين المشورة كما هو الحال مع الأوروبيين بانتخاب رجل من كل عمالة يمثلهم وينوب عنهم ويتكلم في مصالحهم فهذا واجب عليهم وللدولة الحق في اختيار هؤلاء الأشخاص"...**لا يستقام أمرهم وتصلح أحوالهم بينما يبلغون هذه المرتبة الخيرية كالإفرنج إلا بانتخاب رجل من كل عمالة يكون منهم يسمى نائب عنهم في ديوان المشورة كنواب الفلاحين الأوروباويين...أما الدولة لها النظر فيما يعرض عليها من النواب إن شاءت تبطله أو تبقيه..."**[2].

ثمّ صرح ولد قادي بعدها عن موقفه الواضح تجاه السياسة الفرنسية عبر طرحه جملة من الانتقادات التي تضمنت في طياتها بضع مطالب جريئة خصت قضية شراء الفرنسيين للأراضي الجزائرية وما نتج عنه من غبنٍ بحق المواطنين وأصحاب الأرض الأصليين جراء سرقة السماسرة واليهود لمال المواطنين، وما نتج عنه أيضا من إحالة الدعاوى إلى المحاكم من تضييع مال ووقت الفلاح عدا عن كونه يجهل أمور القانون فتضيع حقوقه مرة أخرى[3] في ظل اعتبارٍ من الكولون أن هذه الصفقات الغير العادلة شراء بالمراضاة فتساءل "**أين المراضاة في ذلك وهم لا يحضرون للبيع ولا يعلمون بما اتفقت عليه الجماعة المعنية لاتخاذ الأراضي** "[4]، وبذلك يكون ولد قادي قد نقل صورة عن الأوضاع المعيشية المتدهورة في الجزائر بسبب فقدان الأراضي الزراعية، مشيرا إلى الوسطاء اليهود والتأخير القانوني، منتقدا اللّجان المسؤولة عن مصادرة الأراضي ومستكنرا التقييمات المنخفضة لها وأيضا التأخير في الدفع، كما عبر في ضمن سياقه هنا عن الحاجة إلى الاهتمام بالجانب الزراعي داعيا إلى انتهاج الأساليب الحديثة وإزالة الفوارق بين المستوطنين والجزائريين[5] تمثلت هذه المطالب في مجملها في قوله: [6]

"أولا: تقويم البلاد بالثمن البخس.

---

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق ، ص ص 36- 37.

[2] المرجع نفسه، ص ص 40- 41.

[3] خالد زيادة، المرجع السابق، ص 19.

[4] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص ص 86_ 87.

[5] Kamel Bensahraoui-Djali Moufida, Op.cit, p 388.

[6] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 42- 43.

ثانيا: الوعد الطائل بتنجيز الثمن المشتراة به الأرض.

ثالثا: تضييق العرب بإتخاذ الكثير من أرضهم دون تأويل ولا مبالاة بهم.

رابعا: التزام العرب كراء البلاد الزائدة عن ما يحتاج إليه الكولون بثمن أبلغ من قيمة الشراء لتضييقهم، أما العرب فيقولون هذا عين الغبن ونوع من الجبر...".

وقف ولد قادي في الأخير مدافعا عن حقوق المواطنين بشكل صريح محاولا إثبات تلك الانتقادات فبَيّنة صدقه أنَّ إعجابه بالتقدم الفرنسي لم يكن مخادعا وذلك حينما قال:"...**وليس ما ذكرناه وألقيناه على مسامعكم الشريفة هو كذب أو افتراء اتخذناه من رؤوسنا أو سمعناه بالأذن، بل شهدناه عيانا كمشاهدتنا لفرنسة وعجابها ونقدر على تبيينه إن شئتم...**"[1].

بعد هذه المسيرة الطويلة لولد قادي في خدمته لفرنسا أدرك أخيراً أنَّ العدل غائب تماما على منظومتها في الجزائر، خاصة وقد وقف بنفسه على الكثير من التجاوزات التي كان الجزائريون عرضة لها، ما جعله ينتفض ضد هذا التهميش الذي طال الأغلبية منهم[2] بنبرة حادة وغاضبة: "...**أفلا تكن مصالح العرب الذين عددهم يشتمل على نحو الثلاثة ملايين تستحق النظر أكثر من مصالح الأوروباويين الذين عددهم يشتمل على نحو مائتين وعشرين ألفا؟...**"[3].

إنَّ الولاء الشديد الذي عرف به ولد قادي لدى الدولة الفرنسية جعلهم يتجاهلون تلك المطالب فلم تنل الاهتمام المطلوب الذي كان يطمح له من طرف السلطات الاستعمارية، وذلك لتجنب أي حركة احتجاجية بين السكان الجزائريين، فانقسم المستعمرون حوله بين منتقدين ومعجبين[4] .

[1] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص ص 44- 45.

[2] كمال بن صحراوي وزكرياء جرادي، المرجع السابق، ص ص 80- 81.

[3] أحمد ولد قادي، المرجع السابق، ص 45.

[4] Kamel Bensahraoui-Djali Moufida, Op.cit, p 388.

من خلال دراستنا لمضمون هذه الرحلة يمكن استخلاص جملة من الاستنتاجات التي تتمثل في:

-أنَّ هذه الرحلة شكلت نموذجا ناجحا إلى حد ما يعكس في طياته نجاح السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر في تحقيق مبتغاها الذي تمثل في نقل جانب من صورة فرنسا الحضارية من شاهد عيان وذلك للسيطرة على العقول وكسر شوكة المقاومة.

-تميَّزت هذه الرحلة بطغيان طابع الانبهار والاعجاب لدى الكاتب وكذا المبالغة في المدح والثناء على الحكام الفرنسيين.

-حرص الكاتب على نقل تجاربه وتفاصيل رحلته حيث وصف بدقة ما رآه من المشاهدات وتابع مجمل انطباعاته ويومياته وكأنه مكلف بها. فمثلا ركز على إظهار الجانب العسكري وخصص له فصلا كاملا. بالإضافة إلى تأثره الكبير بالسياسة التعليمية الفرنسية التي عدَّها مفتاح من مفاتيح الرقي والازدهار.

-أتاحت هذه الرحلة للكاتب كشف جانب آخر من صورة فرنسا التي تدعي نشر الحضارة، وعليه فهي تعتبر بيان صريح لنفي هذا الادعاء وهذا ما يتضح من خلال عرضه لجملة من الانتقادات التي أدرجها تحت عنوان "عرض الحال" التي عكست الغياب الكامل لكلمات شعار الثورة الفرنسية في الجزائر.

-في الأخير يمكن القول بأنَّ هذه الرحلة في فصولها الثلاثة الأولى عكست جانبا من شخصية الكاتب المقدِسة لفرنسا المولَعة بحبها، لكن عند قراءة الفصل الأخير نجد أنَّ هذا الشخص نفسه ينتقدها ويطالبها برفع التهميش عن الجزائريين ما جعلنا نقف هنا ونتساءل عمَّا إذا كانت هذه المطالب تكتسي الطابع الوطني ظاهرا وباطنا أم أنّ الكاتب كان يسعى من ورائها إلى ضمان مصالحه الشخصية خاصة وأنه قد تعرف على الوجه الآخر لهذه الدولة، ضف إلى ذلك جملة ما تعرض له من مضايقات واتهامات التي تم الإشارة إليها فيما سبق ذكره.

-بعد قراءتنا لبعض من جانب الحياة الشخصية لولد قادي وبعد تتبع مضمون رحلته هذه يمكننا القول أنَّ الإجابة على هذا التساؤل المطروح يمكن استخراجها ضمنيا من خلال تلك المطالب نفسها بطرح تساؤل آخر، لماذا كان تركيز ولد قادي يختص بمسألة شراء الأراضي الجزائرية دون غيرها من المسائل الأخرى؟؟ ألم يكن شعار العدل الذي أبهره غائب تماما عن كل جوانب الحياة الجزائرية؟؟. لابد أنَّه يكون أعلم بذلك أكثر ممن هو في الجزائر الذي لم يرَ من فرنسا إلا الظلم والتهميش، هذا التركيز من جانب الكاتب يفهم منه أنه يطالب بذلك خوفا لضمان مصالحه فقط فما هو إلا واحد من الأهالي الجزائريين الذين تم استغلالهم لتسهيل مهمة الاحتلال في البلاد الجزائرية وما إن نفدت هذه الخدمة نفدت المكانة المرموقة التي كان يحظى بها معها، وما جعله يطالب بهذا

الاصلاح الذي يمسه هو فهمه وإدراكه الكامل والمتأخر بحقيقة هذه الدولة المزيفة ما دفعه على إخفاء رغباته التي برزت كنتيجة لوعيه، فتملق لها في البداية وأثنى عليها بكل ما تحمله من إيجابيات لعله ينال بعض مصالحه التي تعب من أجلها سالفا والتي أصبحت مهددة لاحقا فهو يعلم تماما أن أيَ اعتراض مباشر منه يكون مسؤولا عن حياته ومكانته فقد أصبح على علم تام بقوانينها وسياستها فمن عرفها قتلها ومن لم يعرفها قتلته.

الخاتمـــــــة

الخاتمة:

بعد دراستنا لمضمون رحلة أحمد ولد قادي ورحلة مُحَمَّد بن عبد الله الصفار استنتجنا جملة من النتائج التي نعرضها في ما يلي:

أنَّ الهوة الكبيرة التي لاحظها الكاتبان بين المجتمعين الفرنسي والمغاربي (الجزائر والمغرب) أشعرتهم بالدونية أمام ذلك التقدم الفرنسي، الأمر الذي جعل نص الرحلتين يتضمن في طياته الدعوة إلى انتهاج هذه الاختلافات كوسيلة للتحديث وذلك بما يتوافق مع ضوابطهم الدينية.

إن الظروف التي تمت فيها رحلة الصفار تختلف تماما عن ظروف رحلة أحمد ولد ولد قادي فهذه الأخيرة كانت تحت رعاية الفرنسيين الذين كانوا يسعون لرسم صورة فرنسا المتحضرة في أعين الجزائريين من شاهدٍ عيان لتسهيل مهمتها الاستعمارية، وعليه فهي تعتبر رحلة ذات طابع غير رسمي كون أن ولد قادي ذهب من أجل حضور المعرض الدولي بباريس. أما إذا نظرنا لظروف رحلة الصفار فنجد أنها تمت برعايةٍ ورغبةٍ من السلطان المغربي المولى عبد الرحمان سعيا منه لاكتشاف مكامن قوة فرنسا للحذر من خطورتها ولربما رغبة في تهدئة الأوضاع معها لاجتناب ما حدث للجزائر وعليه فهي تعتبر رحلة رسمية تمت بأمر من السلطان وبعلم السلطات الفرنسية بها التي كانت تسعى هي أيضا إلى غرس فكرة التخويف لدى البعثة المغربية.

كتبت كلتا الرحلتان بخط مغربي تتخلله بعض الأخطاء الإملائية والبلاغية، مع توظيف الكاتبان لجملة من الكلمات الأجنبية المعربة سواءً فرنسية كالتي وجدت عند أحمد ولد قادي وذلك نظرا للتواجد الفرنسي في الجزائر وانعكاساته الطبيعية على مقومات المجتمع الجزائري، أو كالإسبانية التي وجدت عند مُحَمَّد الصفار وذلك نظرا للقرب الجغرافي من المنطقة، إضافة لاتباعهم نفس المنهجية أيضا التي تمثلت في منهجية الفصول. أما فيما يتعلق بموضوعية الكاتبين وذاتيتهما فيمكن القول بأن الصفار كان موضوعيا جدا من بداية الرحلة إلى نهايتها فقد نقل مشاهداته وانطباعاته بدون أي تحيز، في حين أن كتابة أحمد ولد قادي تتخللها أولاً الموضوعية التي اتضحت من خلال وصفه لمشاهداته في فرنسا والمعرض الدولي ونقله لصورةٍ واضحةٍ عنها، في حين إذا نظرنا إلى ما قدمه ولد قادي في عرض الحال وجملة المطالب التي نادى بها في ذلك الوقت والتي تصب لا محالة في مصالحه نجد أنه لا يخرج عن إطار الذاتية، لكن إذا نظرنا من زاوية أخرى وكيف أنَّ هذا الشخص قد تجرأ على المطالبة بمثل تلك المطالب في وقتٍ كان قد انعدم فيه تقريبا الحق بالمطالبة بأي نوع من الحقوق أمام فرنسا الاستعمارية، نجد أنَّ ذلك الوعي الذي اتصف به ولد قادي يميل بنا نوعا ما إلى القول بأنَّ تلك المطالب تحمل شيئاً من الموضوعية

سواءً برغبةٍ من الكاتب أو بدونها، فقد نقل واقع الجزائريين المعاش دون أي تزييف وبذلك يكون قد ساهم إلى حد ما في المطالبة برفع الغبن عليهم.

إن الزيارات المتكررة لأحمد ولد قادي إلى فرنسا جعلت رحلته تخلوا من التفصيل الممل فيما يتعلق ببعض المشاهدات التي طغت كثيرا في نص رحلة الصفار كوصفه لطريق رحلته من تطوان إلى باريس وهذا ليس بالعجيب فمن تعود على زيارة مكان ما وتعرف عليه حتما تختلف نظرته عن من يزوره لأول مرة.

من خلال نص الرحلتين يمكن القول بأن صورة فرنسا في أعين الكاتبين تختلف تماما فكلٌ يراها حسب منظوره، فالصفار نجده متفطنٌ نوعاً ما لخطورة هذه الدولة وأهدافها وغايتها ومكر ودهاء ساداتها وهذا ما يتضح من خلال استشهاده بمجموعة من الأبيات الشعرية التي تتمحور فكرتها حول مداراة العدو، وعليه فهو يراها الدولة الكافرة والعدوة الخطيرة، في حين أن هذه النظرة تغيب تماما عن أعين ولد قادي إذ نجده يُكِنُ لفرنسا كل الحب والاحترام داعيا الجزائريين إلى السير قُبُلها في كل شيء إلا فيما يتعلق بأمر الديانة التي ينظر إليها نظرة خاصة، وذلك راجع لا محالة لطبيعة نشأته وكذا العلاقات التي جمعته مع ساداتها وحكامها فقد أفنى الرجل حياته في خدمة الفرنسيين على عكس الصفار الذي كان بعيدا كل البعد عن ما يتعلق بفرنسا، الأمر الذي يفسر لنا سبب اختلاف النظرة إلى فرنسا لدى الكاتبين.

نلمس لدى الكاتبان طغيان طابع الاعجاب والانبهار والدهشة الشديدة بالحضارة الفرنسية في كل المجالات السياسية والاقتصادية والتعليمة والاجتماعية وخاصة العسكرية وذلك نظرا لغياب هذه المتطلبات الضرورية في بلدانهم، وهذا الشعور ليس بالأمر الغريب فمن الطبيعي جدا أن يشعر بذلك أي شخص وقف أمام جملة من المفارقات ولا سيَما تلك التي وقف عليها الصفار وأحمد ولد قادي أنذاك.

تميزت رحلة أحمد ولد قادي عن رحلة الصفار بجملة المطالب والانتقادات التي وجهها لولاة فرنسا تحت ما سماه بعرض الحال، فأحمد ولد قادي كان يعيش تحت سلطة الاحتلال ويخضع لقوانينها وبالتالي لديه الحق في الاعتراض عمَّا يضره والمطالبة بحقوقه فهو متقبل لهذه الدولة ولحضارتها ومنخرط في قوانينها بمحض إرادته ووعيه، وما ساعده على ذلك هو المكانة الكبيرة التي كان يحظى بها لدى هؤلاء الولاة على عكس الصفار الذي كان يعيش في دولة ذات سيادة بعيدة عن وطأة الاحتلال.

إن نص هاتين الرحلتين يعكس لنا الأوضاع السيئة والتدهور الكبير الذي كانت تعيشه المغرب والجزائر في تلك الفترة على حد سواء، فنجد أن كل من الصفار وأحمد ولد قادي يضعان القارئ بين الواقع المعيشي في كلا

البلدين وبين الواقع المرغوب الموجود في فرنسا، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار نص هاتين الرحلتين ووقفنا عليهما وقفة مقارنة بما نحن عليه اليوم وما كانت عليه فرنسا أنذاك نجد أن هذه النظرة التي يطغى عليها طابع الشعور بالضعف والتأخر في مقابل التقدم والقوة والتي لمسناها لدى الكاتبين لم تشهد تغيير كبير بالرغم من الفارق الزمني الكبير الذي مر عليهما فهي لازالت قائمة لحد الساعة، بل وللأسف تولد عن هذه النظرة ما هو أخطر من ذلك فنظرا للعجز عن تغييرها أصبح من الضروري الانخراط فيها وتقبلها وليس في ما هو إيجابي وفقط بل وبكل ما تحمله من أبعاد وإن كانت سلبية، وعليه تعتبر هاتان الرحلتان نموذجاً حياً وهاماً يعكس لنا شعور الرغبة المتواصلة في تحسين الأوضاع التي يعيشها العالم الاسلامي.

الملاحـــق

الملحق 01 : الصفحة الأولى من كتاب رحلة الصفار إلى فرنسا (النسخة الأصلية).

لوحة 1 : افتتاحية مخطوط رحلة محمد الصفار

ينظر: سوزان ميلار، ص 24.

الملحق 02 : مراحل رحلة مُحَمَّد الصفار من تطوان إلى باريس.

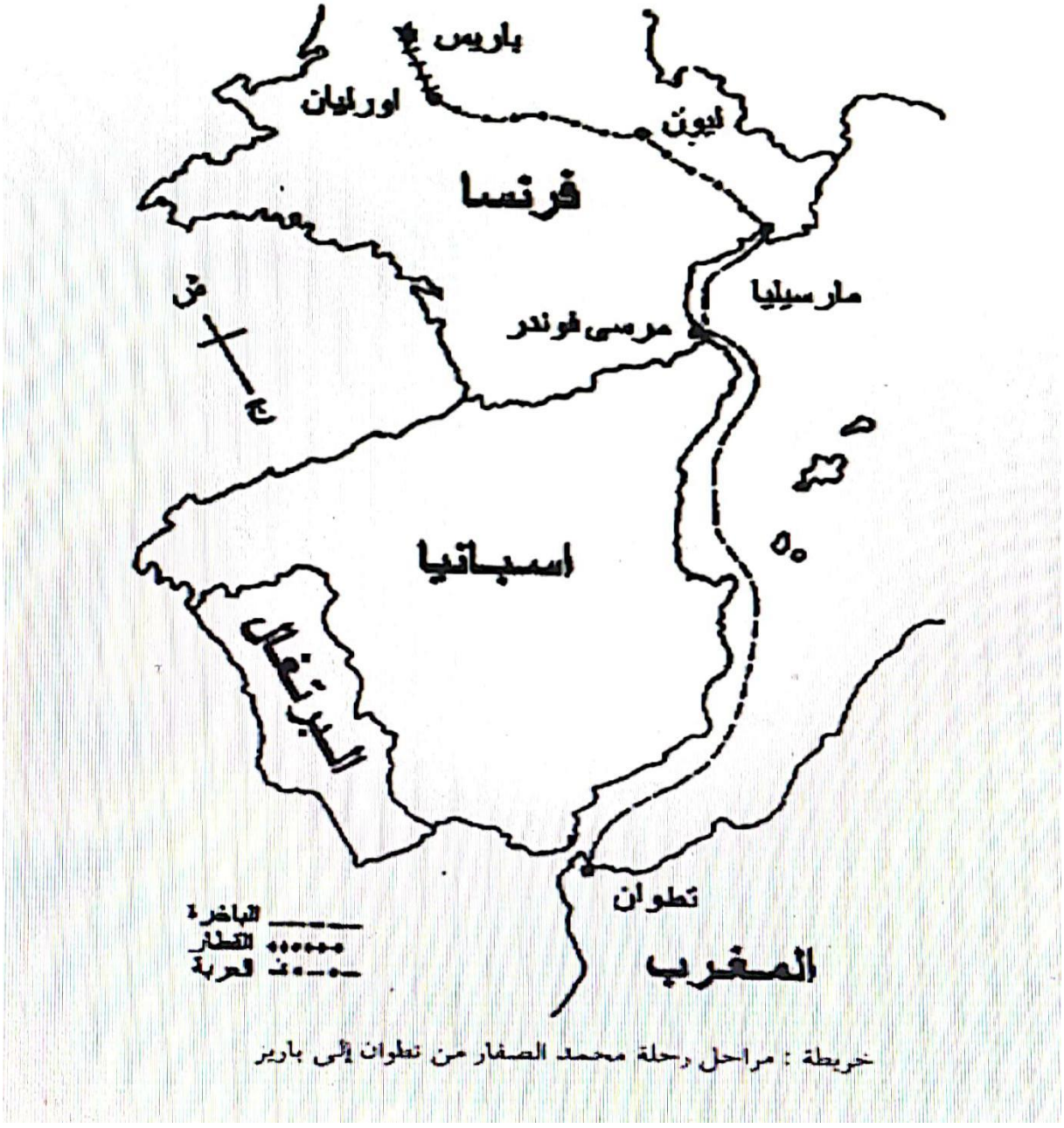

ينظر: سوزان ميلار، ص 23.

الملحق 03 : بطاقة دعوة إلى الصفار لحضور فرجة في قصر التويلوري.

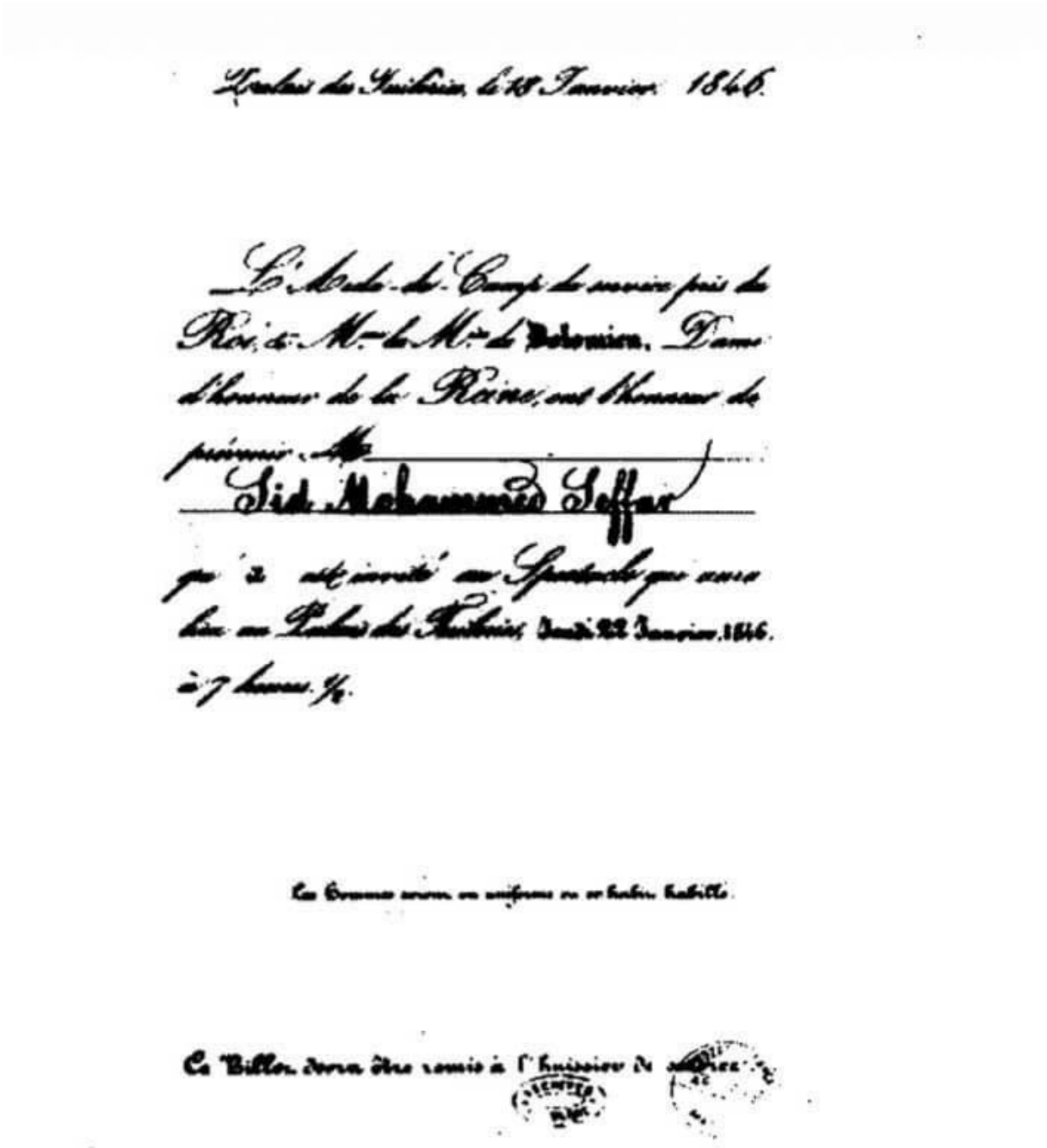

Tuileries, le 18 Janvier 1846.

Le Maréchal de Camp de service près de
Roi, de M. le Mal de Dalmatie, Dame
d'honneur de la Reine, est Monsieur de
prévenir M.
Sidi Mohammed Seffar
que il est invité au Spectacle pour assis
dans les Salons des Tuileries Jeudi 22 Janvier 1846.
à 7 heures ½.

Ce Billet devra être remis à l'Huissier de service.

ينظر: سوزان ميلار ص 184.

الملحق 04 : الصفحة الأولى من كتاب الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية لأحمد ولد قادي.

الملحق 05 : الصفحة الأولى من رحلة أحمد ولد قادي (النسخة الفرنسية).

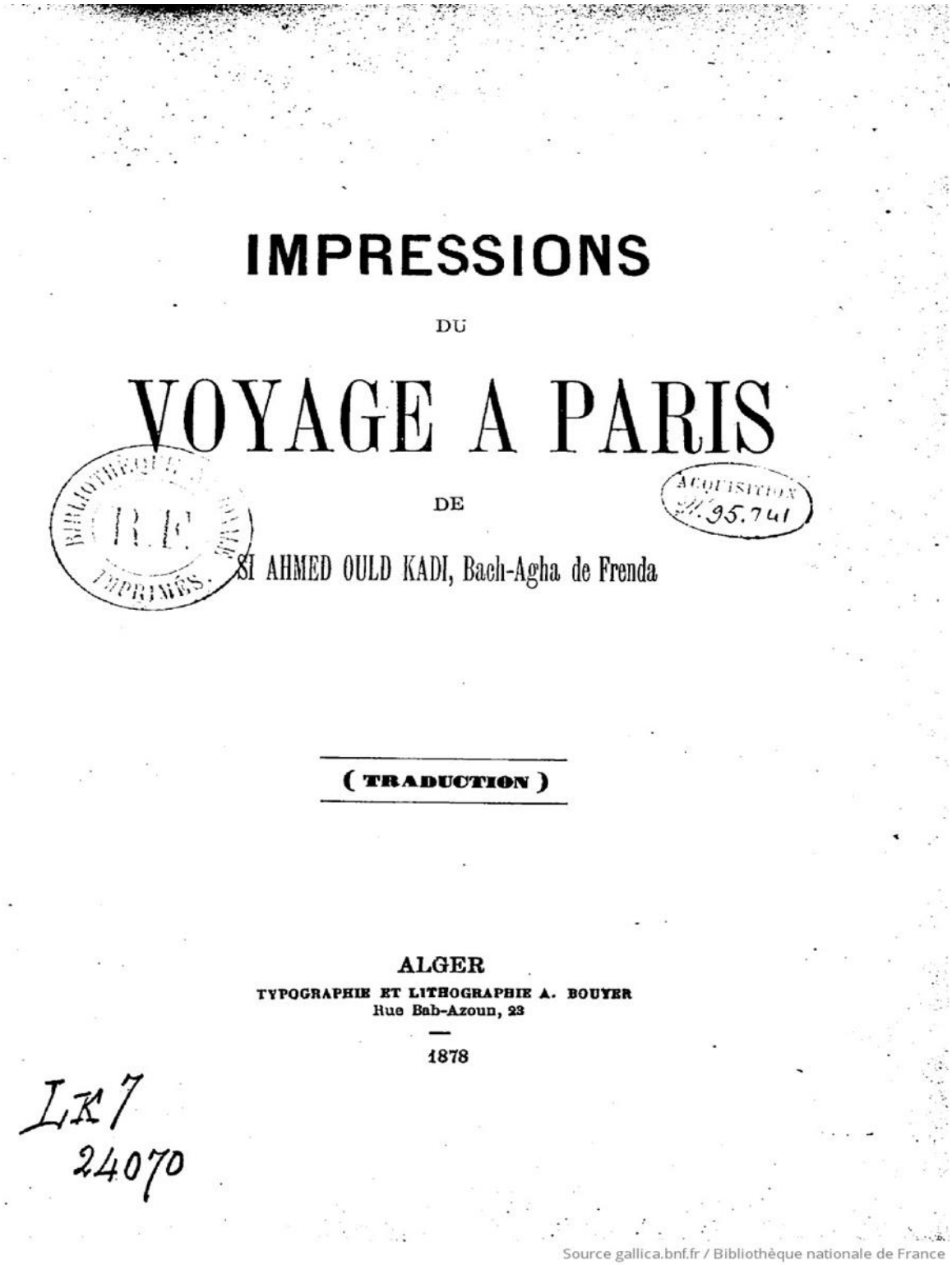

IMPRESSIONS

DU

VOYAGE A PARIS

DE

SI AHMED OULD KADI, Bach-Agha de Frenda

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE R.F. IMPRIMÉS
ACQUISITION M.95.741

(TRADUCTION)

ALGER
TYPOGRAPHIE ET LITHOGRAPHIE A. BOUYER
Rue Bab-Azoun, 23
—
1878

LK7
24070

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

ينظر: الموقع الرسمي للمكتبة الفرنسية https://Gallica.bnf.fr

الملحق 06 : صورة محتملة لأحمد ولد قادي.

ينظر: كتاب الدوايـر والزمالة وحركاتهم، كمال بن صحراوي، زكرياء جرادي، ص 278.

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

قائمة المصادر و المراجع:

أ- المصادر

1. ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تج: عبد السلام هارون، ج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 201399هـ- 1979م.
2. ابن منظور، لسان العرب، مج 6، بيروت لبنان، دار صادر للطباعة والنشر، ط 1، د.ت.
3. أحمد ولد قادي، الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، 1878م.
4. بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج 2، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، د. ط، 2009م.
5. السملالي العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج 7، الرباط، المطبعة الملكية بالرباط، ط 2، 1413هـ-1993م.
6. ميلار سوزان ، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845- 1846م، أبوظبي (الإمارات)، دار السويد للنشر والتوزيع، ط 1، 2007م.

ب- المراجع :

1. برَّادة ثريا، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، الدار البيضاء- المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1997م.
2. بن صحراوي كمال و جرادي زكرياء، الدوابر والزمالة وحركاتهم، الجزائر، الجلفة، فهرنهايت للنَّشر والتَّوزيع، د. ط، 2023م.
3. بن صحراوي كمال، معجم المقاومة الجزائرية، الجزائر- قسنطينة، ألفادوك للنشر والتوزيع، د. ط، 2020م.
4. بن قينة عمر، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د. ط، 1995م.
5. تابليت علي، خمس رحلات جزائرية إلى باريز1852- 1901م، الجزائر، منشورات خمسينية جامعة الجزائر 1962-2012م، د. ط.
6. حركات ابراهيم ، المغرب عبر التاريخ، ج 3، الدار البيضاء- المغرب، دار الرشاد الحديثة، ط 2، 1415هـ- 1994م، ص ص 195- 198.

7. حسين حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، بيروت- لبنان، دار الأندلس للطباعة والتوزيع، ط 02، 1983م.
8. الحمد محمد بن سعود، موسوعة الرحلات العربية و المقربة المخطوطة و المطبوعة معجم بيبليوغرافي، دار الكتب و الوثائق، ط 1، 1428 هـ، 2008 م.
9. حيدر محمود، تجارب استغرابية: الغرب في مرآة الرحالة العرب والمسلمين، العراق، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط 1، 2019م.
10. داود محمد، مختصر تاريخ تطوان، تطوان – المغرب، المطهة المهدية، ط 1، 1375 هـ – 1955 م.
11. زيادة خالد، ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس 1852م- 1878م- 1902م سليمان بن صيام أحمد ولد قاد و مُحَّد بن الشيخ الفغون القسنطيني، بيروت- لبنان، دار فارس للنشر والتوزيع، ط 1، 2005م.
12. سبايارد نازك، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ط 2، 1992م.
13. سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار الغرب الإسلامي، د. ط، 1998م.
14. سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1860- 1900م، ج 1، الجزائر، عالم المعرفة لدار النَّشر والتوزيع، د. ط، 09م.
15. سعدالله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م.
16. الشامي صلاح الدين، الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، د. ط، 1999م.
17. ضيف شوقي، الرّحلات، القاهرة، دار المعارف، ط 4، 1119م.
18. الغزالي أبو حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين، مج 2، بيروت- لبنان، دار الكتب لعلمية، ط 1، 2008م.
19. فهيم حسين محمد، أدب الرّحلات، دار عالم المعرفة، د. ط، يونيو 1989م.
20. قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، 2002م.
21. معريش محمد العربي ، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول، بيروت (لبنان)، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1989م.
22. الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مصر، دار النشر للجامعات المصرية، ط 1، 1995.

ج- المجلات:

1. أنقار محمد احمد، صورة الآخر وصورة الذات في الرحلة الأوروبية لمحمد حجوب، مجلة الأفكار، الرباط، 2016.
2. أوجرتني محمد، الباشاغا أحمد ولد قادي آغا فرندة ورحلته إلى فرنسا سنة 1878م، مجلة البحوث التاريخية، مج 07، العدد 01، الجزائر- قسنطينة، جوان 2023م.
3. أوجرتني محمد، رؤية القياد الجزائريين للقضايا الدينية و الحضارية من خلال كتاباتهم أحمد ولد قادي1805-1883 باساغا فرندة " ندوة الإسلام و رؤية الفرنسيين له، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، قسنطينة، د.ت.
4. بن الذيب عيسى، الحسن بن الطيب بوعشرين تطريب الأسماع بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع، مجلة الواحات للبحوث والدّراسات، مج 8، العدد 1، الجزائر، 2015م.
5. بوجمعة الطيب نعيمة، الرحلة العلمية وأهميتها في مسيرة العالم ابن مرزوق الحفيد (482هـ- 1346م)، المجلة الخلدونية، مج 12، العدد 1، الجزائر- تيارت، 2016م.
6. بوحوص شهيناز، دور الزعامات المحلية في تحقيق المشروع الإستعماري الفرنسي بالجزائر 1830-1871م، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، مج 07، العدد 02، الجزائر، 2021.
7. الدويهي جبور، الرحلة وكتب الرحلات الأوروبية إلى المشرق حتى نهاية القرن 18، مجلة الفكر العربي، العدد 32، 1973م.
8. رحماني فاطمة الزهراء و درّاج محمد ، الرحلة أداة تواصل بين العرب والغرب "الرحلة المصرية والتونسية نموذجاً"، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية للعلوم الإنسانية و الاجتماعية، مج 10، العدد 04، 2018م.
9. الزاهي فريد ، الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، مجلة فصيلة المحكمة، العدد 2، 2013.
10. سعدي خميسي، الرَّحلات الأوروبية الحديثة والمعاصرة مصدر لتاريخ الوطن العربي "رحلة الدكتور شو أنموذجا"، المجلة التاريخية الجزائرية، مج 5، العدد 1، الجزائر، 2021م.
11. الشامي صلاح الدين، الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في معرفة الخدمة الجغرافية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، مج 13، 1983م.

12. عومري عبد الحميد، الرحلات الجزائرية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر " رحلة ابن صيّام والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية أنموذجا"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج 9، العدد 1، الجزائر، 2024م.

13. مصطفى غطيس، باريز وباريزيون في رحلة الصفار (1845- 1846م)، مجلة كان التاريخية، العدد 41، 2018م.

د- المذكرات

1. بوعناني العربي ، المقاومة الشعبية في منطقة تيارت ومواقف الزعامات القبلية والدينية من الاستعمار الفرنسي 1830- 1908م، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، الجزائر، نوفمبر 2022م.

2. روباش جميلة، أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة مُحَّد خيضر، كلية الآداب واللغات، الجزائر- بسكرة، 2014- 2015م.

المراجع بالفرنسية

1. Jaouad Rouchdi, Le dialogue des cultures à travers Voyage à Paris de Mohammed Assaffar Ben Abdellah Al Andalousi Attitouani, Aleph. Médias, langues & sociétés, vol N°3, 2015…

2. Kamel Bensahraoui-Djali Moufida, Ahmed Ould Cadi Bachagha de Frenda entre loyauté envers la France coloniale et montée des revendications nationales,OUSSOUR Al Jadida Revue, Vol 14 No1, 1445/2024.

3. Narcisse Foucon, le livre d'or de l'Algérie histoire politique, etc.de 1830 a 1889, challamel et Cie editeurs, librairie Algérienne et colonaile, paris, 1889..

المواقع الإلكترونية :

1. الموقع الرسمي للمكتبة الوطنية الفرنسية غاليكا (https://gallica.bnf.fr/)

فهرس المحتويات

العنـوان	الصفحـة
شكر و تقدير	
الإهداء	
مقدمـة	أ
الفصل الأول : الرّحلة والرّحلة العربية المعاصرة خلال القرن التاسع عشر	
المبحث الأول: مفهوم الرِّحلة لغةً واصطلاحًا	**6**
1-لغة	**6**
2-اصطلاحا	**7**
المبحث الثاني: دوافع الرّحلة وأغراضها.	**8**
1-دوافع الرحلة	**8**
2- أنواع الرحلة	**10**
المبحث الثالث: أهمية الرّحلة والرّحلة العربية المعاصرة إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر.	**11**
1-الأهمية العامة للرّحلة	**11**
2-أهمية الرّحلة العربية إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر	**12**
المبحث الرابع: نماذج عن الرّحلات المغاربية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر (الجزائر والمغرب).	**13**
1- رحلة سليمان بن صيَّام	**13**
2-رحلة محمد الحجوي	**15**
الفصل الثاني فرنسا في عيون الفقيه محمد الصفار من خلال رحلته	
المبحث الأول: ترجمة مُحَّد الصفار.	**19**
المبحث الثاني: السياق التاريخي للرحلة.	**21**
المبحث الثالث: التعريف بالرحلة.	**23**

المبحث الرابع: دراسة مضمون الرحلة.	**25**
أولا: الفصل الأول توطئة.	**25**
ثانيا: الفصل الثاني فصل في سفرنا في البر من مرسيلية لباريز.	**26**
ثالثا: الفصل الثالث فصل في ذكر مدينة باريز.	**29**
رابعا: الفصل الرابع فصل في عوائدهم في المأكل.	**31**
خامسا: الفصل الخامس فصل في ذكر مكثنا في هذه المدينة.	**32**
سادسا: الفصل السادس خاتمة في بيان مداخيلهم.	**36**
خلاصة الفصل	**38**
الفصل الثالث: فرنسا في عيون أحمد ولد قادي من خلال رحلته	
المبحث الأول: ترجمة أحمد ولد قادي.	**40**
المبحث الثاني: مظاهر ولاء أحمد ولد قادي لفرنسا.	**43**
المبحث الثالث: التعريف بالرحلة	**50**
المبحث الرابع: دراسة مضمون الرِّحلة.	**53**
أولا: الفصل الأول "محاسن فرنسا وملاقاة أعيان العرب مع أرباب الدولة"	**53**
ثانياً: الفصل الثاني في عجائب معرض باريس وما يتعلق به.	**56**
ثالثا: الفصل الثالث في تسراد الجيوش.	**60**
رابعا: الفصل الرابع في توديع العرب لفرنسة وعرض حال لؤلاتها.	**61**
خلاصة الفصل	**65**
خاتمة	**67**
الملاحق	**71**
قائمة المصادر و المراجع	**78**
فهرس المحتويات	**82**

ملخص الدراسة:

تتمحور هذه الدراسة حول موضوع الرّحلات التي قام بها مُحَمَّد الصفار المغربي وأحمد ولد قادي الجزائري إلى فرنسا بداية من القرن التاسع عشر ميلادي، والتي كان لها دورٌ رئيسيٌ في إماطة اللِّثام عن جوانب الحياة الفرنسية والباريسية على وجه الخصوص وذلك من خلال الوقوف على حقيقة التقدم الحاصل فيها وإدراك الواقع المعيشي المتدهور الذي تم اكتشافه على ضوء مجموعة الاختلافات التي كانت بين البلدين، وهو الأمر الذي جعل هؤلاء الرحالة يطرحون جملة من الأسئلة الحيوية التي ترتب عنها الوعي بضرورة الدعوة إلى إعادة تحديث الثقافة العربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الرّحلات، القرن التاسع عشر ميلادي، الحياة الفرنسية، مُحَمَّد الصفار، أحمد ولد قادي، المغرب، الجزائر.

Summary of the study:

This study revolves around the subject of the journeys undertaken by Muhammad Al-Saffar of Morocco and Ahmed Ould Qadi of Al-Jazairi in France in the early 19th century AD, which played a major role in the revelation aspects of French and Parisian life in particular, identify the reality of the progress occurring there and become aware of the deterioration in the standard of living discovered in light of the numerous differences between the two countries, which has led to these travelers to ask a number of vital questions which resulted in awareness. of the need to call for the re-modernization of contemporary Arab culture.

Keywords: Travel, 19th century AD, French life, Muhammad Al-Saffar, Ahmed Ould Qadi, Morocco, Algeria.

.